الفصل الثالث

جوانب القاضي الجرجاني

١ ــ آثاره

ألف القاضي الجرجانيّ :

١ ــ « كتاب تفسير القرآن المجيد » ، ذكره له ياقوت[١] ، ولعلّ هذا الكتاب هو الذي جعل الداوودي يؤرّخ للقاضي في كتابه : « طبقات المفسرين » .

٢ ــ و« كتاباً في الوكالة » ، ذكره له السبكيّ في كتابه : « طبقات الشافعية » ، وقال : إنّ في هذا الكتاب أربعة آلاف مسألة [٢]. وذاك يدلنا على علم غزير ، واطلاع واسع ، ولهذا التبحّر في الفقه ، أرّخ له أبو إسحق الشيرازي في كتابه : « طبقات الفقهاء » ، وأرّخ له السبكي في طبقاته ؛ والتاريخ له في هذا الكتاب يدلّ على أنه كان شافعيّ المذهب .

وكانت دراسته للفقه ، وشهرته به ، هي التي رشّحته لمنصب القاضي .

٣ ــ وكتاب « تهذيب التاريخ » ذكره له ياقوت[٣] والثعالبي[٤] ؛ ويبدو من خطبة هذا الكتاب التي سجلها كتاب اليتيمة [٥] أنه كتاب في تاريخ الرّسول ، وذكر آثاره وأخباره ، ومعارف أحواله وأيامه ، وبيان غزواته ،

---

(١) معجم الأدباء ١٤ : ١٩ .
(٢) طبقات الشافعية ٢ : ٣٠٨ .
(٣) معجم الأدباء ١٤ : ١٩ .
(٤) يتيمة الدهر ٤ : ٧ .
(٥) يتيمة الدهر ٤ : ٨ .

بالإضافة إلى قصص من أنباء الأولين ، وأخبار الآخرين ، وما لهم من آثار فى الأرض ؛ وربما أراد بهؤلاء ملوك الفرس وما كان لهم من عظمة وسلطان ، وما تركوه فى بلادهم من الآثار .

وكان الثعالبى معجباً بهذا الكتاب قال عنه : « إنه تاريخ فى بلاغة الألفاظ ، وصحة الرّوايات ، وحسن التصرّف فى الانتقادات » ثمّ نقل[1] فصلين منه فى كتابه [2].

وذاك يدلنا على أنّ القاضى الجرجانى تأنق فى صياغة كتابه ، واختار له لغة رفيعة مؤثرة ، وأنه كان يقف أمام الرّوايات يدرسها ؛ ليختار أصحّها ، ولم يكن يقبل كلّ ما يقال ، بل كان يحكم عقله فى الأخبار المروية ، يبيّن صحيحها والزّائف منها ؛ وعنوان الكتاب ، وهو تهذيب التاريخ يدل على الخطة التى انتهجها صاحبه فى كتابة تاريخه من انتقاء صحيح المعلومات ، واختيار صادق الرّوايات ، ونفى ما لا يثبت للعقل صحّته .

وإن هذه الخطة العادلة تتفق مع نفسية مؤلفه قاضياً عادلا . وفقد كتاب مثله يعدّ خسارة للمكتبة العربية .

وقدّم القاضى كتابه للصاحب بن عبّاد ؛ فقد قصد به مؤلفه غرضى دين ودنيا : أما الغرض الدينى فتاريخ الرسول لأهداف ذكرها القاضى ؛ وأما الدنيوىّ فأن يكون الكتاب تذكرة له عند الوزير ، يتجدّد به ذكره بحضرته ، ويتكرر به اسمه فى مجلسه .

٤ ــ وكتاب « الأنساب » ، قال بروكلمان [3] : إن ابن خلدون فى تاريخه (١ : ١١٠ ــ أسفل) ذكر للجرجانىّ هذا الكتاب ، ولا بدّ أن يكون فى التاريخ ؛ لانتفاع ابن خلدون به فى كتابه .

---

(١) يتيمة الدهر ٤ : ٧ .
(٢) المرجع السابق ص ٧ و ٨ .
(٣) تاريخ الأدب العربى ٢ : ٢٧١ .

٥ ــ وله « رسائل » قال عنها ياقوت : إنها مدوّنة [١] ، ولكن لم يرد إلينا منها شيء ، ولم يورد الثعالبي منها شيئاً ، ولكنه اكتفى فى نثره بما اقتبسه من كتابى الوساطة وتهذيب التاريخ ، وأجرى ذلك مجرى الأنموذج من نثر كلامه [٢] .

ولعلّ من هذه الرّسائل ما كان سلطانيًّا ، فقد روى ياقوت أنه أنشأ عهداً للقاضى عبيد الجبار علىّ قاضى الرَّىّ [٣] ، ولعله أراد بذلك أن يبين مقدرته على كتابة مثل هذه العهود للصاحب بن عباد ، فمدحه الوزير ببيتين من الشعر [٤] .

٦ ــ وله « ديوان شعر » أثبته له ابن خلكان نقلاً عن أبى إسحق الشيرازى ، وقال السبكىّ فى طبقات الشافعية [٥] : « وله ديوان مشهور » ، ومن ذلك يبدو أنّ ابن خلكان لم ير الديوان ، فلو أنه رآه ما نسب ذلك إلى غيره ، فهل بقى الديوان وكان مشهوراً فى أيام السبكى المتوفى سنة إحدى وسبعين وسبعمائة هجرية [٦] .

وقد ضاع الكثير من شعره ، وما بقى لنا منه قليل ، لا يكوّن ديواناً «صغيراً» ، وتجد معظمه فى معجم الأدباء ويتيمة الدّهر .

٧ ــ أما الكتاب الذى وصل إلينا كاملاً من مؤلفاته فهو « الوساطة بين المتنبىّ وخصومه » ، وهو كتاب له قيمته الكبرى فى النقد الأدبىّ وقد بينا أنّ ظهور مثل هذا الكتاب طبيعىّ فى العصر الذى ألّف فيه ، وأن مؤلفه قاض يريد أن يبيّن ويستبين مواطن الحقّ فيما يقوله الخصوم والأنصار .

ويظهر أنّ السبب المباشر لتأليف هذا الكتاب هو أنّ الصاحب بن عباد وضع رسالته المعروفة فى إظهار مساوئ المتنبّى ، فلم ترق القاضى هذه المغالاة التى

---

(١) معجم الأدباء ١٤ : ١٦ .
(٢) يتيمة الدهر ٤ : ٧ .
(٣) معجم الأدباء ١٤ : ١٥ .
(٤) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٤ .
(٥) ٢ : ٣٠٨ .
(٦) الأعلام للزركلى ١ : ٦١٠ .

يحملها للشاعر الخصوم والأنصار على السواء ، فألف كتابه : « الوساطة » .

وأما السبب الذى دفع الصاحب إلى تأليف رسالته فهو أن الصاحب لم ينس الإهانة التى وجهها إليه الشاعر ، ذلك أن الصاحب كان كاتباً يخدم ابن العميد فى الرّىّ إلى أن استكتبه ابن العميد لمؤيّد الدّولة أبى منصور بُوَيه أمير أصبهان ، فلما زار المتنبى ابن العميد طمع الصّاحب فى زيارة المتنبى إياه بأصبهان ، وإجرائه مجرى مقصوديه من رؤساء الزّمان ، وهو إذ ذاك شابّ لم يستوزر بعد ، فكتب يلاطفه فى استدعائه ، ويضمن له مشاطرته جميع ماله ، فلم يُقِم له المتنبى وزناً ، ولم يجبه عن كتابه ، وقيل إن المتنبى قال لأصحابه : إنّ غليّماً معطاء يريد أن أزوره ، وأمدحه ، ولا سبيل إلى ذلك ؛ فصيّره الصاحب غرضاً يرشقه بالسهام ، ويتتبع عليه سقطاته فى شعره وهفواته ، وينعى عليه سيئاته [١] . وانتهى الأمر بأن وضع الصاحب رسالة أعلن منذ بدئها أنه كتبها ليبين ما فى شعر المتنبى من العيوب ، وليرد على من يظن الشاعر « معصوماً لا يرى له زلل ، ولا يوجد فى شعره خلل » [٢] ؛ إذ قال فى أوّل الرّسالة : « وكنت ذاكرت بعض من يهتمّ بالأدب والأشعار وقائليها والمجوّدين فيها ، فسألنى عن المتنبى ، فقلت : إنه بعيد المرمى ؛ وشعره كثير الإصابة فى نظمه ، إلا أنه ربما أتى بالفقرة الغرّاء ، مشفوعة بالكلمة العوراء ، فرأيته قد هاج ، وحمى وتأجج ، وادعى أن شعره مستمرّ النظام ، متناسب الأقسام . ولم يرض حتى تحدّانى ، فقال : إن كان الأمر كما زعمت فأثبِتْ فى ورقة ما تنكره . . . ففعلت ذلك ، وإن لم يكن تطلب العثرات من شيمتى ، ولا تتبّع الزّلات من طريقتى ، وقد قيل : أىّ عالم لا يهفو ، وصارم لا ينبو ، وأىّ جواد لا يكبو ؟ » [٣] .

وتلك الكلمة التى صدّر بها رسالته تدل على أمرين :

---

(١) الصبح المنبى ص ٨٢ .
(٢) الكشف عن مساوئ المتنبى ص ٢٤٨ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٢٢ .

أوّلهما : أنه لم يضع رسالته ليبين حسنات المتنبي وسيئاته، حتى « يقدح فى المؤلف أنه لم يشر إلى أىّ حسنة للمتنبي . ولا أورد له أى بيت من أبياته الجميلة الكثيرة العدد » ، كما انتقده بذلك بعض الباحثين[1] ، وإنما وضع الرّسالة خالصة لبيان العيوب . فلم يذكر لذلك المحاسن .

وثانيهما : أن الصاحب لم يدّع أنّ شعر المتنبي عيب كله ، بل قرّر أنه بعيد المرمى ، وشعره كثير الإصابة فى نظمه ، بل إن اعتذاره بأنّ العالم قد يهفو ، والصارم قد ينبو ، والجواد قد يكبو ، وتصديره ما عيب عليه « بربما » ، يدلّ على أنّ المعيب من شعره ، وإن كثر ، قليل بالنسبة إلى كثرة الإصابة فى نظمه ؛ فلا وجه للدّهشة إذاً من أمر الصاحب ، إذ « نراه ينقد المتنبي هذا النقد المرّ مع أنه قد تأثر به ، وأخذ عنه » ، ولا أن تثبت إليه نسبة الرّسالة التى عنوانها : « كتاب الأمثال السائرة من شعر المتنبي » ، وأن يكون الصاحب « قد عاد عن تحامله إلى الإنصاف » ، كما توهم ذلك بعض الباحثين[2] ؛ لأن الصاحب لم يكن منكراً لفضله ، ثم عاد ، فأثبته ؛ ولا مثبتاً فى رسالته ضعف أبيات ، ثم رجع عن عقيدته فيها ؛ ولكن رأيه الصّريح فيه أن شعره مصيب تعثر فيه على بعض السقطات ، فأبان عن بعض سقطاته فى رسالة الكشف عن مساوئ شعره . وليس ببعيد أن يبين محاسنه فى كتاب آخر ، ولا يكون الصاحب بذلك متناقضاً مع نفسه ، حتى نضطر إلى أن نزعم أنه كان متحاملاً عليه ، ثم عاد عن تحامله .

ويمضى الصاحب فى رسالته ، مورداً أبياتاً له عسرة الفهم ، أو ذات ألفاظ تمجها النفس ، أو معان غير مقبولة ، أو تدل على سقوط نفسه ،

---

(١) النقد المنهجى عند العرب ص ١٨٦ .

(٢) المرجع السابق نفسه .

أو استعارات غير موفقة ، أو كلمات شاذة أو غريبة ، ، أو أسلوب معقد ، أو مطالع رديئة ، أو ضرورات غير مستساغة ، أو قوافٍ قلقة ، أو كان الشعر لا يناسب المقام ، أو نحو ذلك من وجوه العيب .

والصاحب قد يبين أسباب نقده للشعر ، وأحياناً لا يذكر هذه الأسباب ، وفى كثير من المرّات يسخر بالشعر الضّعيف الذى يورده للمتنبى ، أو يورد أبياتاً قويّة ، ليرى الفرق بينها ، وبين الرّدىء الذى يستشهد به للشاعر ، أو يبين نزوله عما سلّم الناس بنزوله من الشعر .

ويبدو من الصاحب القسوة فى تعليقه على ما يورده من منتقَد شعر المتنبى ، وإن كنت تجد نفسك مسلّماً بوجهة نظر الصاحب فى أكثر ما أورده من الأبيات .

ويقف القاضى الجرجانىّ موقف من يريد أن يكون قاضياً يفصل فى الخصومة ، يقول القاضى : « وما زلت أرى أهل الأدب . . . فى أبى الطيب أحمد بن الحسين المتنبّى فئتين : من مطنب فى تقريظه ، منقطع إليه بجملته ، منحطّ فى هواه بلسانه وقلبه ، يتلقى مناقبه إذا ذكرت بالتعظيم ، ويُشيع محاسنه إذا حكيت بالتفخيم ، ويعجَب ويعيد ويكرّر ، ويميل على من عابه بالزّراية والتقصير ، ويتناول من ينقصه بالاستحقار والتجهيل ؛ فإن عثر على بيت مختلّ النظام ، أو نَبَّه على لفظ ناقص على التمام ، التزم من نُصرة خطئه ، وتحسين زلله ، ما يزيله عن موقف المعتذر ، ويتجاوز به مقام المنتصر — وعائبٍ يريد إزالته عن رتبته ، فلم يسلّم له فضائله ، ويحاول حطّه عن منزلة بوّأه إياها أدبه ؛ فهو يجتهد فى إخفاء فضائله ، وإظهار معايبه ، وتتبع سقطاته ، وإذاعة غفلاته . وكلا الفريقين إما ظالم له ، أو للأدب فيه »[1] .

ولذلك ألّف القاضى الجرجانى كتابه لا ينهج فيه نهج المفرطين فى المدح ،

---

(١) الوساطة ص ٣ .

ولا الزّارين على الشاعر بالباطل ، ولكن أن يبين وجه الحق فيما قاله الخصمان .

ويرى صاحب الوساطة أنّ المرء إذا دلت على فضله آثار ظاهرة ، ونطقت بتقدمه شواهد صادقة « فصاحبها فاضل متقدّم ، فإن عثر له من بعدُ على زلة ، ووجدت له بعقب الإحسان هفوة ، انتُحلَ له عذر صادق ، أو رخصة سائغة ؛ فإن أعوزقيل : زلّة عالم ، وقلّ من خلا منها . وأىّ الرّجال المهذب» [١].

ذلك هو المبدأ الذى يدين به القاضى الجرجانىّ ، ومعناه ألا ينبغى أن تذهب السيئات بالحسنات ، وألا يفخّم من أمر السيئة بل ينتحل لها العذر على أن يكون صادقاً ، وأن يعترف بالخطأ إن لم يمكن التماس العذر .

وإنّ هذا المبدأ هو الذى يميّز بين القاضى وخصوم الشاعر وأنصاره؛ فالأولون لا يلتمسون العذر للزّلات ، ويمضون معظّمين من شأنها ، والآخرون لا يعترفون بالخطأ ، بل يلتمسون معاذير لا يصححها العقل ، ولا يرضاها .

وربما كان تعظيم السيئات فى الرسالة التى كتبها الصاحب بن عباد هو الذى حفز القاضى إلى تأليف كتابه ، يقول الثعالبى : « ولما عمل الصاحب رسالته المعروفة فى إظهار مساوئ المتنبى ، عمل القاضى أبو الحسن كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه » [٢].

وبعد فمتى ألّف القاضى هذا الكتاب ؟

الذى أرجّحه أنّ الصاحب ألف رسالته بعد موت المتنبّى وقبل موت ابن العميد ، وقبل أن يصبح هو وزيراً ومعنى ذلك أن الرسالة ألفت بعد سنة أربع وخمسين وثلاثمائة وهى السنة التى مات فيها المتنبّى[٣] ، وقبل سنة ستين وثلاثمائة ، وهى السنة التى مات فيها ابن العميد [٤].

---

(١) المرجع السابق نفسه .
(٢) يتيمة الدهر ٤ : ٤ .
(٣) وفيات الأعيان ١ : ٣٧ .
(٤) المرجع السابق ٢ : ٥٩ .

وسبب هذا الترجيح أن مقدّمة الرسالة تشعر بأنّ الحديث عن شعر رجل أصبح فى ذمة التاريخ ، كما أنّ الهجوم العنيف الذى فى الرّسالة يدلّ على أن الصاحب لا يخشى أن يهجوه الشاعر بقصيدة لا أعتقد أن ابن عباد يخاطر بنفسه ، فيستجلب غضب المتنبى فينظمها . وقد قرّر ذلك أيضاً المستشرق بلاشير[١].

وأما أنه كتبها قبل موت ابن العميد فوجه ترجيحى له أن الصاحب عندما كان يذكره لا يقول بعد اسمه : « رحمه الله » ، وهو أقل ما ينبغى أن يقوله الصاحب لو أن ابن العميد كان قد مات .

وكان « ابن العميد » نفسه كثير الانتقاد لأبى الطيب[٢] ، وربما أراد الصاحب بذلك أن يرى ابن العميد مدى موافقة الصاحب له فى رأيه فى الشاعر .

ولذلك لا أتفق مع الأستاذ بلاشير الذى جعل تأليف رسالة الصاحب حول سنة ٣٦٤ هـ [٣].

والذى أرجحه أيضاً أنّ القاضى الجرجانى لم يؤلف كتابه عقب تأليف الصاحب رسالته ؛ لأنّ ما قاله له بعض أهل نيسابور فى كتاب الوساطة ، وهو :

أيا قاضياً قد دنت كتبه وإن أصبحت داره شاحطه[٤]
كتاب الوساطة فى حسنه لعقد معاليك كالواسطه[٥]

يرجح أن المؤلف كان قد تولى منصب القضاء ، وهو قد تولى هذا المنصب ،

---

(١) ديوان المتنبى فى العالم العربى وعند المستشرقين ص ٦ .
(٢) النقد المنهجى عند العرب ص ٢٠٦ .
(٣) ديوان المتنبى فى العالم العربى وعند المستشرقين ص ٦ .
(٤) شاحطة : بعيده .
(٥) معجم الأدباء ١٤ : ١٩ .

على ما أرجح بعد أن صار الصاحب وزيراً . والصاحب لم يتول هذا المنصب إلا سنة ٣٦٦ هـ [١].

وقد صار لقب القاضي ملازماً لمؤلف الوساطة ما بقي من عمره . فلا سبيل إلى القطع بأنه ألفه وهو قاضٍ في حياة الوزير الصاحب .

بل إن إيراده لبيت الوزير الذي استشهد به في باب التصحيف[٢] مسبوقاً باسم الصاحب . وهو إسماعيل بن عباد . من غير أن يلقبه بالوزير — قد يوحي بأن كتاب « الوساطة » ألف بعد موت الصاحب . وأن الوزير أصبح في ذمة التاريخ . يتحدث المؤلف عنه . كما يتحدث عن الشعراء السابقين .

وليس فيما بين يدي من المراجع ما يجعلني أقطع في ذلك برأي .

ويظهر أن كتاب « الوساطة » نال حظاً كبيراً من الشهرة يصفها الثعالبي ؛ إذ يقول : « فسار الكتاب مسير الرّياح ، وطار في البلاد بغير جناح »[٣].

كما يصف مؤلفه بقوله إنه « أحسن وأبدع . وأطال وأطاب . وأصاب شاكلة الصّواب . وأعرب عن تبحّره في الأدب وعلم العرب . وتمكنه من جودة الحفظ وقوة النقد » .

---

(١) الصاحب بن عباد ص ٢١ .
(٢) الوساطة ص ٤٥ .
(٣) يتيمة الدهر ٤ : ٤ .

٢ ـ آراؤه فى النقد الأدبى

كانت الوساطة بين المتنبى وخصومه مجالاً عرض فيه القاضى آراءه فى النقد الأدبىّ ؛ ليتخذ ذلك قاعدة يبنى عليها أحكامه فى المتنبىّ وغيره من الشعراء ؛ وهذه بعض آرائه :

(١) إنتاج الشعر :

وأوّل ما عرضه من ذلك رأيه فى الخصائص التى لابد منها لإنتاج الشعر ، وأنها : الطبع ، والذّكاء ، والرّواية ، ثمّ تكون الدّربة مادّة له ، وقوّة لكلّ واحد من أسبابه ، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرّز ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان (١) .

وإذا كان القاضى قد جعل الشعر علماً من علوم العرب ، فإنّ التفرقة بين العلم والفنّ لم تكن معروفة فى عصره ، ولذلك ينبغى ألا نفهم من « العلم » فى كلامه ما نفهمه اليوم من هذه الكلمة .

ونظرة القاضى صائبة إلى مدى بعيد ؛ فالشاعر لابدّ له من هبة تولد معه ، ولا يستطاع اكتسابها ، والشعراء يختلفون فى هذه الهبة أو الطبع ، كما سمّاه الجرجانى ، فمنهم فياض الطبع ، ومنهم من هو ذو هبة محدودة .

وأما الذكاء فبه يلمح الشاعر ما لا يلمح غيره من الناس ، ويدرك من الصّلات والمفارقات ما لا يدركه سواه ؛ وبذلك يتميّز عن غيره ، ويتفرد بألوان من الإحساسات والمشاعر .

ويختلف الشعراء فى الذكاء أيضاً ، فمنهم الألمعى المتوقد ، ومنهم دون ذلك .

ويريد القاضى بالرّواية أن يعيش الشاعر مع النصوص الأدبية ، لصقل

---

(١) الوساطة ص ١٤ .

طبعه وذكائه ، ولذا كانت حاجة المحدث إلى الرّواية أمسّ ، واحتياجه إلى كثرة الحفظ أظهر ؛ لأنّ المطبوع الذّكيّ لا يمكنه تناول ألفاظ العرب إلاّ رواية ، ولا طريق للرّواية إلا السمع ، وملاك الرّواية الحفظ ، وبالرّواية يبلغ الشاعر حظًّا كبيراً من براعة القول .

وقد أدرك النقاد ما لمخالطة النصوص الأدبية من أثر فى الشاعر ، حتى عدها ابن خلدون العنصر الأساسى لتكوين ملكة البلاغة ، إذ يقول : « وهذه الملكة إنما تحصل بممارسة كلام العرب ، وتكرّره على السمع ، والتفطّن لخواص تركيبه »[1] .

وما زلنا إلى اليوم نؤمن بأثر حفظ النصوص الأدبية ، ودراستها فى صقل أسلوب الشاعر ، وتهذيب لغته .

وبالدّربة يظهر الطبع الكامن ، ويبلغ أشدّه ، وبدونها يذبل ذلك الطبع ويذوى ، كبذرة أهمل أمرها ، فلم تنبت .

وإذا كان لنا أن نضيف شيئاً إلى ما ذكره القاضى فذلك هو الثقافة الواسعة التى تمدّ الشاعر بما يزيد إحساسه عمقاً ، وشعوره قوة وسعة .

(ب) اختلاف الشعر :

وباختلاف حظوظ الشعراء من الأمور الأربعة التى ذكرها ، وهى : الطبع والذكاء والرواية والدّربة ؛ يختلف الشعراء فى الإجادة والتبريز .

أما رقّة الشعر وصلابته فمرجعهما ثلاثة أمور :

أوّلها : اختلاف الطبائع ، وتركيب الخلق ، فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة ، وأنت ترى ذلك ظاهراً فى أهل عصرك وأبناء زمانك : ترى الجافى الجلف منهم كزّ الألفاظ ، معقّد الكلام ،

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥١٦ .

وعر الخطاب ، وتحسّس بذلك أيضاً فى صوته ونغمته ، وفى جرسه ولهجته[١] .

وثانيها : البداوة ، فمن شأنها أن تحدث بعض ذلك ؛ ولذلك تجد شعر عدىّ ، وهو جاهلى ، أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة ؛ لملازمة عدىّ الحاضرة ، وبعده عن جلافة البدو وجفاء الأعراب[٢] ؛ ولذلك نرى الشعراء يختارون الكلام اللّيّن السّهل بعد مجىء الإسلام . واتساع ممالك العرب ، وكثرة الحواضر ، ونزوع الناس من البوادى إلى المدن[٣] .

وثالثها : الغرض الشعرىّ ؛ فإنك ترى رقة الشعر أكثر ما تأتيك من قِبَل العاشق المتيمّ ، والغزل المتهالك[٤] .

ومعنى ذلك أنّ بعض أغراض الشعر يفرض الرّقة فى معالجته كالغزل مثلا ؛ لأن القاضى يرى ألا تجرى أنواع الشعر كله مجرى واحداً ، بل ينبغى أن تقسّم الألفاظ على رتب المعانى ؛ فلا يكون الغزل كالفخر ، ولا المدح كالوعيد ، ولا الهجاء كالاستبطاء ، ولا الهزل كالجدّ ، ولا التعريض مثل التصريح ، بل ترتب كلاًّ مرتبته ، وتوفيه حقه ؛ فتلطفُ إذا تغزّلت . وتفخمُ إذا افتخرت ، وتتصرّف للمديح تصرّف مواقعه ؛ فإنّ المدح بالشجاعة والبأس يتميّز عن المدح باللباقة والظرف ، ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام ؛ فلكل واحد من الأمرين نهج يخصّه ، وطريق لا يشاركه الآخر فيه[٥] .

(ح) المثل الأعلى للشعر :

صوّر القاضى الجرجانى ما يراه مثلا أعلى للشعر ، وأنّ ذلك يتحقق بشروط تكون فى اللفظ والأسلوب ، وصفات يتسم بها المعنى .

---

(١) الوساطة ص ١٧ .
(٢) المرجع السابق نفسه .
(٣) المرجع السابق نفسه .
(٤) المرجع السابق نفسه .
(٥) الوساطة ص ٢٣ .

أما تلك التى تكون فى المعنى ، فألا يكون مبتذلا[١] ، وأن يكون صحيحاً شريفاً ، مصيباً فى الوصف ، مقارباً فى التشبيه ، إنسانيًّا يجرى على الألسن مثلا وحكمة [٢]. ولم يفسر القاضى ماذا يريد بالابتذال ، ولا ما يقصده بالشرف ؛ وربما كان مراده منهما البعد عن المعانى الدارجة الشائعة بين الناس ؛ فإننا نرى من الأمثلة التى جاء بها قول البحترى :

أجدّك ما ينفك يسرى لزينبا ... خيالٌ إذا آب الظلام تأوّبا[٣]
سرى من أعالى الشام يجلبه الكرى ... هبوب نسيم الرّوض تجلبه الصَّبا
وما زارنى إلا وَلِهتُ صبابة ... إليه ، وإلا قلت : أهلا ومرحبا
وليلتنا بالجزْع بات مساعفاً ... يرينى أناة الخطو ، ناعمة الصِّبا
أضرّت بضوء البدر ، والبدرُ طالع ... وقامت مقام البدر لما تغيَّبا
ولو كان حقًّا ما أتاه لأطفأت ... غليلاً ، ولافتكّت أسيراً معذّبا
علمتك إن منّيتِ منيت موعداً ... جهاماً ، وإن أبرقتِ أبرقت خلَّبا[٤]
فوا أسفى ! حتّام أسأل مانعاً ... وآمن خوّاناً ، وأعْتِب مذنبا[٥]

وبنظرة إلى هذا الشعر لا نرى معانيه مما تلوكه ألسن العوام ، حتى إن الشاعر عندما أراد أن يعقد صلة بينها وبين البدر لم يلجأ إلى التشبيه المألوف ، ولكنه أحسّ بحبيبته أجمل من البدر ، فإذا نظر إليها والبدر يتلألأ فى السماء ، يرى وجهها أبهى منه طلعة وأجمل ضياء ؛ فلا عجب أن أضاء له وجهها ظلمات السدف بعد أن غرب بدر السماء .

ولا ينغص على هذا الاستنتاج إلا قول الشاعر لحبيبته : أهلا ، ومرحباً ، فهو من الأمور الدّارجة التى لا ارتفاع فيها عن السوقة والدّهماء . ولكن للشاعر عذراً فى ذلك ؛ فقد صوّر لنا ما وقع عندما رأى طيف الحبيبة .

---

(١) الوساطة ص ٢٦ . (٢) الوساطة ص ٣٢ ، ٣٣ . (٣) تأوب : رجع ليلا .
(٤) الجهام : السحاب لا ماء فيه . والبرق الخلب : المطمع المخلف .
(٥) الوساطة ص ٢٥ .

ويكون المعنى مبتذلاً كذلك إذا تداوله الشعراء ، وأكثروا من ذكره ، كما نرى ذلك فى عيون الجآذر [١] وعيون الغزلان [٢].

أما المعنى الإنسانى فهو الذى يجد فيه الناس صدى لما يجول فى نفوسهم ، ومعبّراً عما يشعرون به ، فيجرى البيت الذى تضمن هذا المعنى على الألسنة ، ويسير فى الآفاق .

ولا ينبغى أن يغضّ المعنى من شأن الشعر إذا لم يكن دينيًّا ؛ « فلو كانت الدّيانة عاراً على الشعر ، وكان سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر لوجب أن يمحى اسم أبى نواس من الدّواوين ، ويحذف ذكره إذا عدّت الطبقات ، وكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية . . . ولكنّ الأمرين متباينان ، والدّين بمعزل عن الشعر » [٣] . وتلك حرّية فكريّة لناقد من رجال الدّين .

ولا يقبل القاضى الإحالة فى المعنى ، ولذلك لم يقبل قول أبى نواس :

وأخفت أهل الشرك ، حتى إنه لتخافك النطف التى لم تخلق

ويقول إنه من المحال الفاسد [٤].

كما أنه لا يقبل الإفراط ، ويراه منقصة ذميمة ، وإن كان يرى القدماء قد أتوا به ، وجاء الذين بعدهم فرأوا سبيلا مسلوكاً ، وطلب المتأخر الزّيادة ، ولم يقف عند حدّ المتقدّم ؛ فاجتذبه الإفراط إلى النقص ، وعدل به الإفراط نحو الذم [٥].

وأما الاستعارة فلها قيمتها الكبرى فى البلاغة ؛ فهى أحد أعمدة الكلام ، وعليها المعوّل فى التوسّع والتصرف [٦] ، وتكسو الكلام بهجة وجمالا [٧] .

---

(١) الوساطة ص ٣٠ .
(٢) الوساطة ص ٣٠ ، ٣١ .
(٣) الوساطة ص ٦٢ .
(٤) الوساطة ص ٤٤١ .
(٥) الوساطة ص ٤٣٧ .
(٦) الوساطة ص ٤٤٢ .
(٧) الوساطة ص ٣٠ .

ويعرّف القاضى الاستعارة بأنها ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل، ونقلت العبارة فجعلت مكان غيرها [١]. ويفرق بينها وبين التشبيه الذى يجمع بين الأصل والاسم المستعار ، كقول أبى نواس :

والحبّ ظهر أنت راكبه فإذا صرفت عنانه انصرفا

إذ المعنى : الحبّ كظهر تدبره كيف شئت إذا ملكت عنانه[٢].

ويرى القاضى الجرجانى أنّ ملاك الاستعارة تقريب الشبه ، ومناسبة المستعار له للمستعار منه [٣].

وعلى هذا الأساس تكون الاستعارة جيدة ، وإذا خالفته كانت مذمومة رديئة ، فإذا جاءتك الاستعارة كقول زهير :

وعرّى أفراس الصّبا ورواحله

وقول لبيد : إذا أصبحت بيد الشمال زمامها

وقول ابن الطثريّة :

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطىّ الأباطح

فقد جاءتك الاستعارة المحببة إلى النفوس [٤].

فإذا استمعت إلى قول أبى تمام :

باشرت أسباب الغنى بمدائح ضربت بأبواب الملوك طبولا

فاسدد مسامعك، وإياك والإصغاء إليه ؛ فإنه مما يصدئ القلب ، ويطمس البصيرة ، ويكدّ القريحة [٥].

ويعيب القاضى على أبى تمام أنه هو الذى أخرج الاستعارة عن نهج الاقتصاد الذى كان يجرى عليه الشعراء قبله [٦].

---

(١) الوساطة ص ٤٠ .
(٢) الوساطة ص ٤٠ .
(٣) المرجع السابق نفسه .
(٤) الوساطة ص ٣٣ – ٣٩ .
(٥) الوساطة ص ٣٩ – ٤٠ .
(٦) الوساطة ص ٤٤٢ .

ولا يزال هذا الأساس الذى اختاره صاحب الوساطة أساساً صالحاً للاستعارة .

أما عناية القاضى الجرجانى بالأسلوب وتقديره لأثره القوى فى النفس فبالغة حدًّا كبيراً ، وحسبك أن تسمعه يقول : « وإذا أردت أن تعرف موقع اللفظ الرّشيق من القلب ، وعظم غنائه فى تحسين الشعر ، فتصفّح شعر جرير وذى الرّمة فى القدماء ، والبحترى فى المتأخرين ؛ وتتبع نسيب متيّمى العرب ، ومتغزّلى أهل الحجاز ، كعمر ، وكثيّر ، وجميل ، ونُصيب ، وأضرابهم . . . ثم انظر واحكم وأنصف ، ودعنى من قولك : هل زاد على كذا ؟ وهل قال إلاّ ما قاله فلان ! فإن روعة اللفظ تسبق بك إلى الحكم ، وإنما تفضى إلى المعنى عند التفتيش والكشف » (١).

ومعنى ذلك أنّ جمال الأسلوب هو أوّل ما يأسرك فى الشعر ، ويملك عليك نفسك ، أما المعنى فإنه يؤثر فيك بعد أن تقف لتفتّش عنه وتكشفه .

وإذا كان القدماء يؤثرون الجزالة فى الألفاظ ، فإنّ « القاضى » يرى الزمن قد تغيّر ، كما أسلفنا ، وهو لذلك يؤثر السّهل الرّشيق من الأساليب ، ولكنه لا يريد بالسّهل الضّعيفَ الرّكيكَ ، ولا بالرّشيق الخنثَ المؤنثَ ، بل يريد النمط الأوسط : ما ارتفع عن الساقط السّوقى ، وانحطّ عن البدوىّ الوحشىّ (٢).

كما يرى أنّ الأساليب يجب أن تتنوّع بتنوّع الأغراض والمقاصد (٣).

ويؤثر القاضى الأسلوب الطبيعى يسترسل فيه صاحبه مع الطبع ، ويتجنب الحمل على نفسه والعنف بها (٤). وقد يتوهم من ذلك أن الكلام الجيّد ما خرج عن طبع صاحبه ، وإن لم يكن هذا الطبع مهذّباً مصقولا ، فقال : « ولست أعنى بهذا كلّ طبع ، بل المهذّب الذى صقله الأدب ، وشحذته الرّواية ،

---

(١) الوساطة ص ٢٣ ، ٢٤ .
(٢) الوساطة ص ٢٣ .
(٣) المرجع السابق نفسه .
(٤) الوساطة ص ٢٤ .

وجلته الفطنة، وألهم الفصل بين الرّدىء والجيد ، وتصوُّرَ أمثلة الحسن والقبح»[١].

وبرغم أنّ القاضى ، ربما وجد فى الشعر الذى عنى صاحبه بإدخال الصناعة فيه جمالا وفنوناً من الحسن ، يرتاح أكثر ما يرتاح إلى الأسلوب البعيد عن الصنعة والزّخارف ، فتراه يروى قول أبى تمام :

دعنى وشرب الهوى ، يا شارب الكاس ... فإننى للذى حسّيته حاسى
لا يوحشنّك ما استعجمت من سقمى ... فإن منزله من أحسن الناس
من قطع ألفاظه توصيلُ مَهْلَكَتى ... ووصلُ ألحاظه تقطيع أنفاسى
متى أعيش بتأميل الرّجاء إذا ... ما كان قطع رجائى فى يدىْ ياسى

فإنه علّق على هذه الأبيات ، فقال : « لم يخل بيت منها من معنى بديع ، وصنعة لطيفة ؛ طابق ، وجانس ، واستعار ؛ فأحسن ؛ وهى معدودة فى المختار من غزله ، وحقّ لها ؛ فقد جمعت على قصرها فنوناً من الحسن ، وأصنافاً من البديع ؛ ثم فيها من الإحكام ، والمتانة ، والقوة ما تراه ؛ ولكننى ما أظنك تجد له من سورة الطرب ، وارتياح النفس ما تجده لقول بعض الأعراب :

أقول لصاحبى والعيس تهوى ... بنا بين المنيفة فالضمار[٢] :
تمتع من شميم عَرار نجد ... فما بعد العشية من عرار[٣]
ألا يا حبذا نفحات نجد ... وريّا روضه غِبَّ القِطار[٤]
وعيشُك إذ يحل القوم نجداً ... وأنت على زمانك غير زار[٥]
شهور ينقضين ، وما شعرنا ... بأنصاف لهنّ ولا سِرَار[٦]
فأما ليلُهن فخير ليل ... وأقصر ما يكون من النهار

---

(١) المرجع السابق نفسه .
(٢) المنيفة : ماء لتميم . والضمار : موضع .
(٣) الشميم : مصدر شم . والعرار : زهر أصفر طيب الرائحة .
(٤) نفح الطيب : انتشرت رائحته . والريا : الريح الطيبة . وغب : بمعنى بعد . والقطار : جمع قطر ، وهو : المطر .
(٥) زرى عليه عمله : عابه عليه .
(٦) السرار : آخر ليلة من الشهر .

فهو ، كما تراه بعيد عن الصّنعة . . . سهل المأخذ ، قريب التناول [١] .

والقاضى يثنى على الشعر إذا خلا من الصنعة و بعد عن البديع [٢].

ويرى أن ألوان البديع التى كانت تقع فى شعر القدماء كان لها جمالها ، وتميّز أبياتها عن أخواتها فى الرشاقة واللطف ؛ لأنها كانت تقع على غير تعمد وقصد ، بل اتفاقاً فى البيت بعد البيت ؛ وإنما الذى أفسدها هو تكلف المحدثين الاحتذاء عليها ، والقصد إليها ، فأحسن بعض ، وأساء آخرون[٣] .

وقد أورد القاضى بعض ألوان البديع ؛ من طباق ، وجناس ، وتقسيم ، وغيرها ، وهو لا يحمدها إلا إذا جاءت غير متكلّفة . « فمع التكلف المقت ، وللنفس عن التصنع نفرة ، وفى مفارقة الطبع قلة الحلاوة ، وذهاب الرّونق ، وإخلاق الدّيباجة » [٤].

الأسلوب الجيدّ عند القاضى هو الذى خلا من التعقيد ، وفساد الترتيب ، واضطراب النسج والغموض . ولذلك كانت هذه العيوب مجال وقفات منه فى شعر المتنبى يلتمس له فيها المعاذير [٥]. و بعضها مما عيب به أبو تمام[٦] .

وقد سبق أن بينا رأيه فى غموض أبيات المعانى « فليس فى الأرض بيت من أبيات المعانى لقديم أو محدث إلا ومعناه غامض مستتر ، ولولا ذلك لم تكن إلا كغيرها من الشعر ، ولم تفرد فيها الكتب المصنّفة . وتشغل باستخراجها الأفكار الفارغة [٧].

ولأوّل مرة يصدر القاضى الجرجانىّ مثل هذا الحكم العام الذى تحرّز من مثل إصداره فى موضع آخر ؛ لأنه لم يطلع على شعر الأوائل والأواخر [٨].

---

(١) الوساطة ص ٣١ – ٣٢ .
(٢) الوساطة ص ٣٠ .
(٣) الوساطة ص ٣٣ .
(٤) الوساطة ص ١٨ .
(٥) الوساطة ص ١٧٥ .
(٦) الوساطة ص ٤٣١ .
(٧) الوساطة ص ١٥٦ . .
(٨) الوساطة ص ٢٢ .

وأغلب الظنّ أنّ القاضى الجرجانىّ عمّم حيث ينبغى التخصيص ؛ لأننا إذا عددنا من أبيات المعانى حكم المتنبى وحكم غيره من الشعراء ، وجدنا كثيراً منها واضحاً لا يكلفنا عناء البحث والتنقيب .

وللقاضى الجرجانى بعد ذلك رأى فى القصيدة المثلى ، فهى التى ترى فيها « تناسب أبياتها وازدواجها ، واستواء أطرافها واشتباهها ، وملاءمة بعضها لبعض ، مع كثرة التصرف على اختلاف المعانى والأغراض » (١).

ولعله يقصد بتناسب الأبيات وازدواجها ، التحام معانيها ، وشدة تماسكها ، ويريد باستواء الأطراف واشتباهها ، وحدة نسج القصيدة من أوّلها إلى آخرها ، حتى يشبه بعضها بعضاً ، وذلك كله برغم اختلاف المعانى والأغراض .

(د) السرقة فى الشعر :

يعدّ القاضى الجرجانى التعمق فى معرفة هذا الباب ضروريًّا لمن يريد أن يعد من جهابذة الكلام ونقاد الشعر (٢).

وخلاصة رأيه فى ذلك :

١ — أن الأمور المتقررة فى النفوس ، التى يشترك فيها الشاعر والمفحم ، كتشبيه الحسن بالشمس والبدر ، لا سرقة فيها ؛ لأنها مشترك عام الشركة (٣).

٢ — وإن كان المعنى مخترعاً مبتدعاً ، ولكنه صار مستفيضاً متداولا ، لا يعد مسروقاً كذلك ، لأنه استفاض على ألسن الشعراء . كتشبيه الفتاة بالغزال فى جيدها وعينيها (٤).

---

(١) الوساطة ص ٣٠ .
(٢) راجع ما اقتبسناه من هذا الفصل فى « منتخبات من آثاره » .
(٣) الوساطة ص ١٧٩ — ١٨٠ .
(٤) الوساطة ص ١٧٩ — ١٨٠ .

٣ — وتفاضل الشعراء فى هذه المعانى المتداولة بزيادة يهتدى إليها أحدهم دون غيره ؛ فيريك المشترك المبتذل فى صورة المبتدع المخترع . وبهذه الزيادة يصبح ملكاً لصاحبه ، فإذا أخذ منه عد مسروقاً ، وذلك كقول لبيد :

وجلا السيول عن الطلول كأنها زُبُرٌ تجدُّ متونها أقلامها[١]

والشعراء يشجعون على مثل هذه الزيادة ، ويمدحون بها [٢].

٤ — وإذا أخذ الشاعر معنى لغيره فزاد فيه زيادة حسنة ، أو اختصره إن كان مطوّلا — فلا عيب عليه فيما فعل ، فإذا سمعت مثلا قول أبى دهبل الجمحى :

وكيف أنساك ؟! لا أيديك واحدة عندى ، ولا بالذى أوليت من قِدَم

علمت أنه من قول النابغة :

أبى غفلتى أنى إذا ما ذكرته تقطع حزن فى حشا الجوف داخل
أن تلادى إن نظرت . وشِكّتى ومهرى ، وما ضمت إلىّ الأنامل[٣]
وحِباؤك ، والعيس العتاق كأنها هجانُ المها ترْدِى ، عليها الرحائل[٤]

قال القاضى : « فإذا أنصفت أبا دهبل عرفت فضله ، وشهدت له بالإحسان ؛ لأنه جمع هذا الكلام الطويل فى : « لا أيديك واحدة عندى » ؛ ثم أضاف إليه : « ولا بالذى أوليت من قدم » ؛ فتم المعنى ، وأكّده أحسن تأكيد [٥].

٥ — وإنما العيب نقل المعنى والكثير من الألفاظ [٦].

---

(١) الوساطة ص ١٨١ — ١٨٢ . وجلا عن بلده : خرج . والزبر : جمع زبور ، وهو : الكتاب . وتجد : من التجديد . والمتون : جمع متن ، وهو الظهر .
(٢) الوساطة ص ١٨٣ .
(٣) التلاد : المال كان أوولد فى بيتك من قديم . والشكة : السلاح .
(٤) الحباء : العطية . والعيس : كرام الإبل . والهجان : الخيار . والمها : جمع مهاة ، وهى البقرة الوحشية . وردت الفرس : رجمت الأرض بحوافرها فى سيرها .
(٥) الوساطة ص ١٨٣ ، وستعود إلى مناقشة القاضى فى ذلك عند الحديث عن ذوقه .
(٦) الوساطة ص ١٨٥ .

٦ — على أنه ينبغى ألا يقصر الناقد السرقة على ما ظهر دون ما كمن ؛ بل عليه أن يدرك تناسب قول لبيد :

وما المالُ والأهلون إلاّ ودائع ولا بدّ يوماً أن تُرَدَّ الودائع

وقول الأفوه الأودى :

إنما نعمة قوم مُتعةٌ وحياة المرء ثوب مستعار

وإن كان هذا ذكر الحياة ، وذلك ذكر المال والولد ؛ وكان أحدهما جعل وديعة، والآخر عارية [١].

ويعرف تفنن الشعراء فى السرقة ، فيكون البيت فى النسيب ، فيأخذ الشاعر معناه فى بيت مدح مثلا . فقول كثير فى الغزل :

أريد لأنسى ذكرها ، فكأنما تمثل لى ليلى بكل سبيل

أخذ معناه أبو نواس فقال مادحاً :

ملك تصور فى القلوب مثاله فكأنه لم يخل منه مكان[٢]

بل إن من لطيف السرقة ما جاء على سبيل القلب كقول المتنبى :

أأحبه وأحب فيه ملامة إن الملامة فيه من أعدائه

نقض به قول أبى الشيص :

أجد الملامة فى هواك لذيذة حبّاً لذكرك ، فليلمنى اللوّم[٣]

٧ — ومن الواجب على الناقد أن يتثبت قبل أن يحكم بالسرقة[٤]، وألا يحكم بها لمجرد التشابه بين الألفاظ[٥]، أو للعصبية والهوى[٦].

٨ — ويرى القاضى أن السرقة داء قديم ، وكان أكثره ظاهراً كالتوارد ، ثم تفنن المحدثون فى إخفائه بالنقل والقلب وغيرهما ؛ ويلتمس القاضى العذر

---

(١) الوساطة ص ١٩٥ .
(٢) الوساطة ص ١٩٩ .
(٣) الوساطة ص ٢٠٠ .
(٤) الوساطة ص ٢٠٠ و ٢٠٨ .
(٥) الوساطة ص ٢٠٢ .
(٦) المرجع السابق نفسه .

لأهل عصره ومن جاء بعده إذا أخذوا عن السابقين : « لأن من تقدمنا قد استغرق المعانى ، وسبق إليها ، وأتى على معظمها »[١].

٩ ــ ومن أكبر العيوب عند القاضى الجرجانى السرقة والتقصير[٢] .

وإذا ذكرنا القيد الذى ذكره القاضى الجرجانى من ضرورة الزيادة فى المعنى ، أو التجويد فى الأسلوب ، أدركنا أنه لا يمنع استفادة المحدث من أفكار سابقيه ، على ألا يكون كلا عليهم ، بل عليه أن يضيف إلى الميراث القديم جديداً ، فتنمو المعانى مع الزمن ، وتتجدد الأساليب .

كما أن فى دعوته إلى البحث عن السرقات الخفية ، وفى عيبه أن يعيش الشاعر على فتات موائد سواه ــ دعوة للشعراء إلى الاعتماد على أنفسهم ، والتفتيش عن مواهبهم ، حتى يبتكروا المعانى ، وينقبوا عنها .

(هـ) مذهبه التأثرىّ والذوق :

يعتمد القاضى الجرجانى اعتماداً كبيراً فى تقدير الأثر الأدبى على ما يحدثه هذا الأثر فى النفس ، ويقيس الجودة بمقدار هذا الأثر ، كما يقيس الرداءة بمدى نبوّ القلب ونفوره ؛ فتسمعه يقول معلقاً على أبيات فى الغزل للبحترى : « تأمل كيف تجد نفسك عند إنشاده ، وتفقّد ما يتداخلك من الارتياح ، ويستخفك من الطرب ، إذا سمعته ، وتذكر صبوة إن كانت لك ، تراها ممثلة لضميرك ، ومصورة تلقاء ناظرك »[٣].

فهو يعتمد ، كما ترى ، على مقدار إحساس السامع بالطرب ، ومدى إثارته لعواطفه ، ولعل القاضى يرى أن سبب هذه الإثارة ، هو أن الأثر الأدبى يصور شعور السامع ، ويعيد إليه صوراً كامنة فى نفسه .

---

(١) الوساطة ص ٢٠٧ ــ ٢٠٨ .
(٢) الوساطة ص ٣٧ .
(٣) الوساطة ص ٢٦ .

ويقول فى موضع آخر متحدثاً عن أبيات جيدة وأخرى رديئة : « إنه يميّز بقبول النفس ونفورها ، وينتقد بسكون القلب ونبوّه » [١].

ولذلك أشاد القاضى الجرجانى بجمال الأسلوب ؛ لأنه أول ما يفجأ القارئ كما سبق أن ذكرنا .

والشعر لا يؤثر فى النفوس إذا احتاج إلى الجدل والمحاجّة ، وإنما يعطفها عليه القبول والطلاوة ، ويقربه منها رونقه وحلاوته [٢].

والذى يحكم بجودة الشعر أو رداءته إنما هم النقاد الذين أوتوا ذوقاً صقله التهذيب وإدمان الرياضة ، ووهبوا دقة فى الفطنة ، وصفاء فى القريحة ، ومقدرة على الغوص ؛ فلكل صناعة أهل يرجع إليهم فى خصائصها ، ويستظهر بمعرفتهم عند اشتباه أحوالها ؛ فقد يكون الشىء متقناً محكماً ، ولا يكون حلواً مقبولا ، ويكون جيداً وثيقاً . وإن لم يكن لطيفاً رشيقاً ، وقد نجد الصورة الحسنة والخلقة التامة مقلية ممقوتة ، وأخرى دونها مستحلاة موموقة[٣]. والحكم فى ذلك إنما هم أهل الصنعة المدربون .

ويعتمد هؤلاء النقاد فى إصدار أحكامهم على ما منحوه من الذوق المرهف ، الذى أدمن على مخالطة النصوص الأدبية ، والتعرف على ما فيها من أسباب الجمال ؛ وهم لذلك يستطيعون تقويم الشعر ، ومعرفة جيده ورديئه .

وهؤلاء النقاد قد تمكنهم الحجج من إبراز أسباب ما يرون من الصواب أو الخطأ [٤] ، والكشف عن أسرار الجمال أو القبح .

وأحياناً يحسون بالأمر فى قلوبهم ، ولكنهم لا يستطيعون الإفصاح عنه بألسنتهم ، كما حدث بين أحد المعترضين على أبى الطيب فى قوله :

---

(١) الوساطة ص ٤٤٢ .
(٢) الوساطة ص ٩٦ .
(٣) الوساطة ص ٩٦ — ٩٧ .
(٤) الوساطة ص ٤٤٢ .

مسرَّةٌ فى قلوب الطيب مفرِقُها وحسرة فى قلوب البَيْض واليلب[١]

إذ جعل للطيب والبيض واليلب قلوباً ، لأن المتنبى يريد أن يقول : إن قلب الطيب مسرور ، لأنه يخالط مفرق شعرها ، فى حين أن قلب الخوذة والدرع متحسر ؛ لأنها لا تلبسهما ، إذ هى لا تقاتل فى ميدان القتال .

فرد عليه القاضى بأن ابن أحمر يقول :

ولهت عليه كل معصفة هوجاء ليس للبّها زَبْرُ[٢]

وما الفصل بين من جعل للريح لبًّا ، ومن جعل للطيب والبيض والدروع قلباً ؟ فلم يحر الخصم جواباً غير أن قال : أنا اسْتَبَرْتُ ، ووجدت بين استعارة ابن أحمر للريح لبًّا ، واستعارة أبى الطيب للطيب قلباً بوناً بعيداً ، وربما قصر اللسان عن مجاراة الخاطر ، ولم يبلغ الكلام مبلغ الهاجس[٣] .

وقد استطاع القاضى الجرجانى أن يصل إلى الفرق بين الاثنين : « وذلك أن الريح لما خرجت بعصوفها عن الاستقامة ، وزالت عن الترتيب ، شبهت بالأهوج الذى لا مُسكةَ فى عقله . . . ولما كان مدار الأهوج على التباس العقل حسن من هذا الوجه أن يجعل للريح عقلا »[٤] .

وحيناً يحس الناقد بذوقه الجمال أو القبح ، فإذا سئل عن سبب حكمه أقام السائل مقام المتعنت ، وكان أقصى ما فى وسعه أن يقول : موقعه من القلب ألطف ، وهو بالطبع أليق ، وربما حاجّك بظاهر تحسه النواظر ، وأنت تحيله على باطن تحصّله الضمائر[٥] .

وليس كل ذوق يرضاه القاضى حكماً ، بل الذوق الذى أدمن الرياضة ، وكان صاحبه شديد الفطنة ، صافى القريحة ، بعيد الغرض[٦] .

---

(١) اليلب : الدروع تتخذ من الجلود . والبيض : جمع بيضة ، وهى : الخوذة من آلات الحرب ، لوقاية الرأس .
(٢) الوساطة ص ٤٤٣ . وزبره عن الأمر : منعه ، ونهاه عنه .
(٣) الوساطة ص ٤٤٣ .
(٤) الوساطة ص ٤٤٤ .
(٥) الوساطة ص ٤٢٧ وارجع إلى النص فى فصل المختار من آثاره .
(٦) المرجع السابق نفسه .

ويرى القاضى الجرجانىّ أنّ أشدّ ألوان النقد هو هذا الذى يحتاج إلى الذوق الموهوب وإدمان الرياضة . أما أقل الناس حظًّا فى النقد فهؤلاء الذين يقفون عند الأمور التى لا تحتاج إلى ذرق كالاقتصار على سلامة الوزن ، وإقامة الإعراب ، وأداء اللغة ، وما فى الكلام من تجنيس وترصيع ومطابقة ، أو عند المعانى الغامضة ، لا يبالى ظهورها فى نظم مضطرب ، أو نسج مهلهل ، لا يقابل بين الألفاظ والمعانى ، ولا يرى الحسن إلا ما أفاده البديع وما جاء به التصنيع (١) .

ويكاد نقّاد العرب يجمعون على أنّ الذّوق المهذّب المثقف هو الفيصل فى الحكم على النصوص الأدبية ، وإلى هذا الحدّ يقف القاضى الجرجانىّ ، حتى إذا جاء عبد القاهر لم يقف عند هذا الحدّ ، بل رأى أنه لا بد لكلّ كلام تجده حسَنًا من أن يكون لهذا الحسن مصدر معلوم ، وعلة معقولة ، وأن يكون هناك سبيل إلى التعبير عنه ، ودليل على صحة ما ادّعيته ؛ ويرى أنّ الإيمان بذلك يفتح باباً تطّلع منه على فوائد جليلة ، ويجعلك على بينة من العلم ؛ فلا تقبل دعوى من غير برهان ، ولا تدلى بحكم بلا دليل ، ولا يسألك السائل عن حجة يردّ بها على الخصم ؛ فلا ينصرف عنك بما يقنعه ، ويكون كلّ ما يجده منك أن تحيله إلى نفسه ، وتقول له : إننى نظرت ، فرأيت فى الكلام فضلا ومزّية ، ووجدت لذلك أريحية ؛ فعليك أن تنظر ؛ لتعرف كما عرفت ؛ وينتج من ذلك أنه إذا استطاع أن يصل كما وصلت ، فقد آمن بما آمنت ، وإلا تناكرتما ، وكان فى نظرك ضعيف التأمل ، سيئ الاستنباط ، فاسد الذّوق ، وكنت فى نظره فاسد التخيل .

ويؤكد عبد القاهر أنه من الآفة الزّعم بأنه لا سبيل إلى معرفة العلة فيما به كان الكلام الجميل جميلا ، ويرى ذلك توانياً وكسلا من الناقد ، وأنّ عليه أن يبحث عن السبب حتى يهتدى إليه .

---

(١) الوساطة ص ٢٢٤ – ٢٢٦ .

ومع أنّ عبد القاهر يعلم أنّ الناقد أحياناً لا يستطيع أن يصل إلى معرفة سبب الجمال — لا يرى ذلك وسيلة لليأس من الوصول إليه . ويدعو إلى أن يتخذ المرء ما يعرف وسيلة إلى ما لا يعرف ، وذلك أحرى من أن يسدّ باب المعرفة على نفسه ، ويمنعها من الفهم والتفهم ، ويعوّدها الكسل والهوينى [١] .

فليت شعرى أكان عبد القاهر يحذّر من رأى أستاذه : القاضى الجرجانى من أنّ السائل عن أسرار الجمال متّعنت . وأن ذلك أمر سبيل إدراكه البصيرة ، وقلما استطاع أن يفصح عنه اللسان[٢].

إننا من غير ريب ننتقل مع عبد القاهر خطوة إلى الأمام فى النقد الأدبى إذ نحاول معرفة الأسباب ، ووضع القواعد لهذا الفنّ الرّفيع .

٣ — ذوق القاضى الجرجانى

للقاضى الجرجانىّ ذوق صائب غالباً فيما يختاره للشعراء من جيّد الشعر ورديئه ، بل إنه عند ردىء الكلام يطلب إلى السامع أن يسدّ مسامعه . ويستغشى ثيابه ، حتى لا يرى ولا يسمع [٣] ؛ وعند القول الجيّد يعجب به الإعجاب البالغ ، ولنصغ إليه يعرض قصيدة لأبى تمام جمعت بين الجيد والرّدىء فيدل فى حكمه على ذوق نقى ممتاز ، فيقول : « ربما افتتح الكلمة وهو يجرى مع طبعه ، فينظم أحسن عقد ، ويختال فى مثل الرّوضة الأنيقة ، حتى تعارضه تلك العادة السيئة[٤] ، فيتسنم أوعر طريق ، ويتعسّف أخشن مركب ، فيطمس تلك المحاسن ، ويمحو طلاوة ما قد قدّم ، كما فعل أبو تمام فى كثير من شعره ، ومنه قوله :

---

(١) عبد القاهر الجرجانى ص ٨٩ — ٩٣ ، راجع إلى دلائل الإعجاز ص ٣٣ ، ٣٤ ، ٢٢٦ وأسرار البلاغة ص ٢٦٢ .

(٢) راجع نص القاضى الجرجانى فى فصل المنتخبات من آثاره . والوساطة ص ٤٢٦ .

(٣) الوساطة ص ٤٠ . (٤) يريد عادة الرغبة فى الاقتداء بالأوائل .

لو حار مرتاد المنية لم يجد إلاّ الفراق على النفوس دليلا
قالوا: الرّحيل ، فما شككت بأنها نفسى من الدنيا تريد رحيلا
الصبر أجمل غير أنّ تلذّذاً فى الحب أحرى أن يكون جميلا
أتظننى أجد السبيل إلى العزا وجد الحمام إذاً إلىّ سبيلا
ردُّ الجموح الصعب أسهل مطلباً من رد دمع قد أصاب مسيلا
إنى تأملت النوى ، فوجدتها سيفاً على أهل الهوى مسلولا

يقول القاضى : « فهو ، كما تراه ، يعرض عليك هذا الديباج الخسروانى ، والوشى المنمنم ، حتى يقول :

لله درك أى معبّرِ قفرةٍ لا يوحش ابن البيضة الإجفيلا [1]
أوَ ما تراها ؟ لا تراها هزة تشأى العيون تعجرفاً وذميلا [2]

فنغّص عليك تلك اللذة ، وأحدث فى نشاطك فترة [3].

والقاضى الجرجانى يقف عند هذه الحدود ، لا يتجاوزها إلى بيان الأسرار ، وتحليل الأسباب التى من أجلها استحسن ذوقه أو استهجن .

وهو مصيب فيما يهديه إليه ذوقه من القواعد ، ولكن لك أن تأخذ على هذا الذوق أنه أحياناً لا يكون صائباً فى حكمه على الشعر ؛ فقد رأيناه مثلا يدعو إلى الاسترسال مع الطبع ، ونبذ التكلف ، وهو محق فيما يدعو إليه ، ولكننا رأيناه يمدح قطعة أبى تمام : « دعنى وشرب الهوى يا شارب الكاس . . . »[4] وهى مقطوعة غلبت فيهـا الصناعة ، حتى طمست المعنى ، وأزهقت روحه ، فبدا تافهاً هزيلا . وخذ لذلك مثلا شرب الهوى ، والشاعر جاء به

---

(١) قال محققا الوساطة نقلا عن التبريزى : خرج إلى صفة الناقة بغير ذريعة إلى الخروج ؛ يقول : لله درك أيتها الناقة أى معبر قفرة أنت ، أى تعبر عليك القفرة ، ولا يوحش هذا المعبر ابن البيضة ، أى الظليم ، والإجفيل : الكثير الإجفال .

(٢) قال المحققان أيضاً : التعجرف : النشاط فى السير . والذميل : نوع من السير ، وتشأى : تسبق .

(٣) الوساطة ص ٢١ — ٢٢ .

(٤) راجع ص ٥٨ من هذا الكتاب .

ليتجانس مع شارب الكاس ، والهوى يغزو القلوب ويأسرها ، ولكن الناس لا يشربونه ، وزاد الشاعر الأمر كرباً عندما جعل نفسه تحسو الهوى كما يحسو شارب الخمر كأسه ، ولم يدفعه إلى ذلك إلا رغبة فى التجنيس المتكلف .

وقف فى البيت الثانى عند استعجام سقمه ؛ لتبحث طويلا عن معناه ، وربما أراد به عدم إدراك سببه ، وعند الشطر الثانى ، لتعرف أن المنزل هنا مصدر ميمى بمعنى النزول ، ومن للسببية ، وأن المعنى : السقم الذى حل به ولم يعرف صاحبه سببه إنما نزل به من أجل أحسن الناس ؛ فأى وقفة طويلة ، وأى معنى تافه .

وفى البيت الثالث طباق تلمّسه الشاعر فى الشطرين . ولكنّك لا تدرى معنى لقطع الألفاظ ، ووصل الألحاظ ، إلا أنها مثال للطباق والجناس .

والبيت الرابع معناه : متى أرجو إذا كان اليأس مستولياً على قطع الرجاء ، ويئول المعنى إلى : متى أرجو إذا كنت يائساً . وليس هو بمعنى ذى قيمة يستحق أن يكون شعراً ، وليس فى البيت سوى هذا الطباق بين اليأس والرجاء .

كما أنه عد من الشعر الجيد قول الشاعر :

والورد فيه كأنما أوراقه نزعت ، وردّ مكانهن خدود

فقد علق عليه بقوله : « لم يزد على ذلك التشبيه المجرد ، لكنه كساه هذا اللفظ الرشيق ، فصرت إذا قسته إلى غيره وجدت المعنى واحداً ، ثم أحسست فى نفسك عنده هزة ، ووجدت طربة تعلم لها أنه انفرد بفضيلة لم ينازع فيها »[1] .

ولست أدرى من أين تأتى الهزة ، أو توجد الطربة ، ومجرد الشعور بانتزاع أوراق الورد يثير فى النفس الألم ، ويصوّر لها منظراً حزيناً لا يخفف منه أن يوضع مكان الأوراق خدود .

---

(١) الوساطة ص ١٨٣ .

وإذا كان التشبيه يراد به أن يكون مصباحاً يضيء فكرة الشاعر ، وينقل إحساسه إلى غيره من السامعين فإن تصوّر الخد مقتطعاً من الجسم وموضوعاً مكان أوراق الورد ، لا يؤدى وظيفة التشبيه فى تعميق الإحساس ، وتصوير الشعور ؛ لأن الناس لم يألفوا رؤية هذا المنظر .

ولذلك لا أوافق القاضى الجرجانى فى استحسان قول علىّ بن الجهم :

عشية حيانى بورد كأنه خدود أضيفت بعضهن إلى بعض[1]

لأن الناس لا يرون فى الطبيعة خدوداً يضاف بعضها إلى بعض .

ولكنه كان دقيق الملاحظة عندما أورد قول ابن المعتز :

بياض فى جوانبه احمرار كما احمرّت من الخجل الخدود

فإنه رأى أن الشاعر لو اتفق له أن يقول : حمرة فى جوانبها بياض ، لكان قد طبّق المفصل ، وأصاب الغرض ، ووافق شبه الخجل[2] .

ولكنه إذا كان لنا أن نعترض على ذوقه فى بعض ما استحسنه أو استقبحه ، فإن النتائج التى وصل إليها صحيحة مسلم بها فى أغلب الأحيان .

٤ ــ أسلوبه

طبق القاضى الجرجانى نظريته فى الاسترسال مع الطبع على نثره ، فترك قلمه على سجيته ، مؤثراً الحرية فى الصياغة الفنية ، لا يلتزم سجعاً ولا ازدواجاً ، إلا حيث يجيئان طبيعيين ، لا تكلف فيهما ، ولا إسراف .

وإذا كان فى كتاب الوساطة شىء من السجع ، فإنك تلمس أنه لم يجئ مقتسراً فى مكانه ؛ على أنه لم يلتزمه ، كقوله : « كم من فضيلة لو لم تستُرها المحاسدة لم تبرح فى الصدور كامنة ، ومنقبة لو لم تزعجها المنافسة لبقيت

---

(١) الوساطة ص ١٨٢ .

(٢) المرجع السابق نفسه .

على حالها ساكنة ! لكنها برزت ، فتناولتها ألسن الحساد تجلوها ، وهى تظن أنها تمحوها ، وتشهرُها ، وهى تحاول أن تسترها ؛ حتى عثر بها من يعرف حقها ، واهتدى إليها من هو أولى بها ، فظهرت على لسانه فى أحسن معرض ، واكتست من فضله أزين ملبس ، فعادت بعد الخمول نابهة ، وبعد الذبول ناضرة ، وتمكّنت من بر والدها ، فنوّهت بذكره ، وقدرت على قضاء حق صاحبها ، فرفعت من قدره : « وعسى أن تكرهوا شيئاً ، وهو خير لكم »[1] .

ولكن القاضى لا يلبث أن يدع قلمه يسترسل كما يشاء ، وينسى السجع وغيره من ألوان الزخارف .

وقد احتفظ القاضى الجرجانى فى ذلك بشخصيته ، فلم يتأثر فى ذلك بالصاحب بن عباد الذى كان ولوعاً بالسجع إلى درجة سبق بها جميع من تقدمه من الكتاب[2] ؛ ولا بغيره من الكتاب الذين التزموا السجع لا يخرجون عنه إلا قليلا ، كبديع الزمان والخوارزمى ، ولا الذين يؤثرون الازدواج ، ويسجعون من حين إلى حين كابن العميد .

ولم يكن القاضى وحده فى عصره هو الذى تحرّر من ربق السجع ، بل كان من المتحرّرين كذلك المرزبانىّ صاحب الموشح ، والأصفهانىّ صاحب الأغانى[3] .

وما بقى من كتاب « تهذيب التاريخ » يجرى أيضاً على طريقة الاسترسال الذى لا يعرف السجع ، ولا يعنى بغيره من باقى المحسنات[4] .

وأريد أن أضيف إلى وصف خصائص أسلوبه أن العبارات القضائية تندس فيه هنا وهناك ؛ فتسمعه يقول : « عجّلت بالحكم قبل استيفاء الحجّة ، وأبرمت

---

(١) الوساطة ص ١ .
(٢) الصاحب بن عباد ص ١٣١ .
(٣) النثر الفنى ١ : ١١٣ .
(٤) راجع جزءاً من هذا الكتاب فى فصل المختار من آثاره .

القضاء قبل امتحان الشهادة »[١] ، ويقول : « قد وفينا لك بما اقتضاه شرط الضمان ، وزدنا . وبرأنا إليك مما يوجبه عقد الكفالة ، وأفضلنا »[٢] ، ويقول : « ومن آنصف حجّزه حضور البيّنة عن المنازعة »[٣].

٥ ـ منهجه فى كتاب الوساطة

وضع القاضى الجرجانىّ كتاب الوساطة رسالة واحدة ذات مقالة واحدة . لا أبواب فيها ولا فصول ؛ بدأها بالحديث عن التّفاضل ، وأنه داعية التنافس ، وهو سبب الحسد . مع أن واجب العلماء والأدباء أن يتواصلوا . ويحمى بعضهم عرض بعض . وأن يعدلوا فى أحكامهم (ص ١ — ٢) .

ثم ذكر موقف أهل الأدب من المتنبى ، وأنهم فئتان : واحدة تطنب فى تقريظه ، وأخرى تجتهد فى إظهار عيوبه . وإخفاء محاسنه . مع أن لكل عالم هفوة . ولكلّ شاعر سقطة . وهنا يورد عدداً من أغاليط الشعراء (ص ٣—١٤) .

ويتحدث بعدئذ عن الشعر . وليم يتفاوت الشعراء فى الجودة والإحسان . وأن الشعر يختلف باختلاف البيئة والطبائع ، وأن محاولة التكلف مفسدة للشعر . كما فعل أبو تمام (ص ١٤ — ٢٢) .

ويصف المؤلف الأسلوب الممتاز عنده ، ويورد أمثلة لهذا الأسلوب من شعر البحترى ، وشعر جرير . ويتحدث عما يرد فى الأسلوب من ألوان البديع ، وكيف تكون الاستعارة حسنة حيناً وسيئة حيناً آخر (ص ٢٣—٤٧) .

ولكن القاضى الجرجانى لا يكثر من الحديث على المحسنات البديعية ، لأن المتنبى لم يكن من المغرمين بها ، وإنما كانت تجىء منه عفواً ، ولكنه

---

(١) الوساطة ص ٧٩ .
(٢) الوساطة ص ١٧٣ .
(٣) الوساطة ص ٤٣٣ .

أكثر من الحديث على الاستعارة ، لأن أبا الطيب نُسب إليه كثير من الاستعارات الرّديئة . وكانت الاستعارة شائعة فى أشعاره .

وكل ذلك مقدّمات يمهّد بها المؤلف لحديثه عن المتنبى وخصومه .

ويذكر أنّ خصومه رجلان : أحدهما لا يعترف بفضل المحدثين ؛ وثانيهما يظلم المتنبى لأنه يعترف بفضل بعض المحدثين ، ولكنه ينكر فضل أبى الطيب ؛ وهنا يورد المؤلف بعض كبار الشعراء المحدثين ؛ ليبين نقائصهم (ص ٤٨ — ٧٨) .

ويذكر ما عيب به شعر المتنبى ، ويأتى بأمثلة كثيرة من شعره المعيب (ص ٧٩ — ٩٧) .

ويعقب على ذلك بإيراد أمثلة من شعره الجيّد ، ويورد من ذلك قدراً كبيراً (ص ٩٧ — ١٧٤) .

ويعود إلى عيب السرقة . فيقف محدّداً لها ، مبيناً متى تكون ، ومتى لا يتهم الشاعر بها ، ويضرب أمثلة كثيرة من سرقات الشعراء ، ويذكر رأيه فى السرقة (ص ١٧٤ — ٢٠٨) .

ويورد ما نسب إلى أبى الطيب من السرقات ، معلقاً عليه أحياناً . وصامتاً أحياناً كأنه يقرّر السرقة بهذا الصمت (ص ٢٠٩ — ٤٢٥) .

ويعود المؤلف لاستكمال بعض المآخذ على أبى الطيب ، ويلتمس المعاذير له (ص ٤٢٨ — ٤٤٦) .

ويأخذ بعدئذ فى دراسة موضعيّة ، يعرض فيها بعض الأبيات التى عيبت على المتنبى ، ويدرسها بيتاً بيتاً ، ملتمساً العذر له فى كثير ممـــا وقع فيه (ص ٤٤٦ — ٤٩٢) .

ويبدو من عرضنا لكتاب الوساطة أنه متماسك مرتبط الأجزاء بعضها ببعض ، وأنّ المقدّمات التمهيدية التى تحدّث فيها عن تطور الشعر لها صلة وثيقة

بالمتنبى ؛ لأنها ترى أنه من الخطأ قياس المتنبى بالشعراء الأقدمين ، وإنما يقاس ، إذا توخّينا العدالة ، بأمثاله من الشعراء المحدثين .

كما يبدو أن مؤلّف الكتاب جعل دفاعه عن المتنبى ألواناً ثلاثة :

أولها : مبدأ المقاصّة ، أى وزن الحسنات بالسيئات لنرى أن جانب الحسنات أرجح .

وثانيها : أن أمثاله من عظماء الشعراء المحدثين لهم مثل أغلاطه ، فلِمَ ينفرد دونهم بالحساب والمؤاخذة وإغفال أمر الجيد من شعره .

وثالثها : التماس الأعذار فيما أخطأ فيه إن كان له عذر .

كما يبدو أيضاً أنّ المؤلف أطال الوقوف عند ماأُخِذَ على أبى الطيب ، يبين عيوبه ، ويذكر ما قد يكون له من توجيه ، وإذا طبقنا رأى المؤلف فى أنّ الشعر لا يكون مقبولا بالمحاجة والمخاصمة ، أدركنا أنّ هذا الشعر الذى دافع عنه القاضى لا يمكن أن يرتفع إلى درجة الشعر الجيد .

ولم يقف المؤلف عند الشعر الجيد لأبى الطيب يبين أسباب روعته ، ونواحى الجمال فيه ، ولو أنه فعل لكان ذلك من أقوى وسائل الدّفاع عن المتنبى ، وكان المجال واسعاً أمامه للموازنات بينه وبين غيره . وإنه حتى فى الموازنات القليلة التى عقدها بينه وبين غيره ، لم يقف طويلا ؛ ليبين فضل أبى الطيب ، ومقدار سموّه فى الناحية التى اتجه إليها ، ولكنه كان يلمس ذلك لمسات مسرعة .

٦ ــ شعره

كان القاضى الجرجانىّ يعدّ نفسه من أهل الأدب [١] ؛ فكان له رأيه فى علم من أعلام الشعر هو المتنبى ؛ ويعدّ نفسه شاعراً شرود الشعر ، يعجب الناس بشعره ، ويستعيرون منه ما راقهم :

---

(١) الوساطة ص ٣ .

ولكنّنى أرمى بكلّ بديعة يبتن بألباب الرّجال لواعبا
تسير ، ولم ترحل ؛ وتدنو ، وقد نأت وتكسب حُفّاظ الرّجال المراتبا
ترى الناس : إمّا مسّهاماً بذكرها ولوعاً ، وإما مستعيراً وغاصبا (١)

وكان مثله الأعلى فى الشعر أن يجمع بين أبى تمام والبحترى ، فيأخذ من الأوّل دقة المعنى ، ومن الثانى السّهولة والرّقة :

أحيت حبيباً والوليد ، ففصّلا منها وشائع (٢) نسجها تفصيلا
فأفادها الطائىّ دقة فكره والبحترىّ دماثة وقبولا (٣)

وبالشعر سجل رأيه فى الشعر الرائع القوىّ ؛ فرأيناه يقيسه بمقدار ما يتركه فى النفس من أثر ؛ وهو يذكرنا بمذهبه التأثرى الذى سبق أن شرحناه ، فليس الشعر إلا ما أثار عواطف الممدوح ، ووجد فيه المشتاق صدى لعواطفه ومشاعره ، ومسح على قلب الغاضب ، فألانه وأرضاه ، وكما صرّح فى الوساطة برأيه فى الشعر الجيّد ، وأنه الذى يسترسل فيه صاحبه مع الطبع ، لا يقتسر الأسلوب ، ولا يتكلف العبارات تكلفاً ؛ وندّد بصنف من الشعراء يجعلون همّهم اقتناص القوافى ، واتخاذها نبراساً يقودهم إلى النظم ، فيكون عملهم نظم أبيات لا يجمع بينها جامع ، ولا يربطها معنى ، وبصنف آخر يرضى بميسور القول ، ويقنع بالضعيف . وترى ذلك إذ يقول :

وما الشعر إلا ما استفزّ ممدّحا وأطرب مشتاقاً ، وأرضى مغاضبا
أطاع ؛ فلم توجد قوافيه نفّراً ولم تأته الألفاظ حسرى لواغبا (٤)
وفى الناس أتباع القوافى : تراهمُ يبثّون فى آثارهنّ المقانبا (٥)
إذا لحظوا حرف الرّوىّ تبادروا وقد تركوا المعنى مع اللفظ جانبا

---

(١) يتيمة الدهر ٤ : ١٩ .
(٢) الوشائع : جمع وشيع ، وهو : علم الثوب .
(٣) يتيمة الدهر ٤ : ١٩ . ودمث : سهل . وحبيب والطائى : أبو تمام .
(٤) حسرى : متعبة . واللغب : الإعياء الشديد .
(٥) يتيمة الدهر ٤ : ١٩ .

وإن مُنِعوا حرّ الكلام تطرّقوا حواشيه ، فاجتاحوا الضّعيف المقاربا[١]

ويرى الشعر الرّقيق يفعل بالنفوس فعل الخمر ، وإن لم تسكر :

كفتنا حميّا الخمر رقّة لفظها وأمّننا تهذيبُها هفوة السكر

وقد تنوعت أغراض الشعر عنده : بين غزل ، ومدح ، وشكوى ، وإخوانيات وحكمة . ويرقّ شعره عندما تتدفق عواطفه ، ويكون هدفه الإفصاح عن وجدانه.

وأغلب غزله مقطوعات يعبّر بها عن إحساس بلون من ألوان الجمال ، وبرغم قصر هذه المقطوعات تدل على أنّ القاضى من المفتونين بالحسن ، المغرمين بالخدود الناضرة ، والعيون الساحرة ، والقدّ الأهيف ، والقبلة الممتعة ، وله فى الشوق إلى ديار الحبيب والحنين إلى أيام السعادة بلقياه شعر يفيض حرارة وقوة ، وهو يقسم بألوان الجمال عندما يريد أن يؤكد كلامه .

ويسير فى مدحه على النظام التقليدى يبدؤه بالغزل ، ويتخلّص منه إلى المدح ، وهو يجتهد فى حسن التخلّص ، بالربط الوثيق بين الغزل والمدح كقوله :

ولمّا تداعت للغروب شموسهم وقمنا لتوديع الفريق المغرّب

تلقّين أطراف السجوف بمشرق لحنّ ، وأعطاف الخدور بمغرب[٢]

فما سرن إلا بين دمع مضيّع ولا قمن إلا بين قلب معذّب

كأنّ فؤادى قِرنُ قابوس راعه تلاعبه بالفيلق المتأشب[٣]

ويمضى بعدئذ فى مدح قابوس بن وشمكير .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠ .

(٢) شرح هذا البيت الأستاذ عبد الخالق عمر (رحمه الله) فى معجم الأدباء ٤ : ٣٠ فقال : السجوف : الستائر . والمشرق : صفة لمحذوف ، أى دمع مشرق ، من أشرقه ، بمعنى أغصه . ومغرب صفة لمحذوف : أى قلب مبالغ فى الحزن . يريد أنهن عند الصعود ، وتلقى السجوف بكين ؛ فلما صرن فى أعطاف الخدور حزنت قلوبهن ، فهى معذبة . والبيت بعده يوضح ما قلنا .

(٣) معجم الأدباء ٤ : ٣٠ والقرن : نظيرك فى الشجاعة . وراعه : أفزعه . والفيلق : الجيش العظيم . والمتأشب : المختلط . يصف فؤاده المضطرب إذ يشتد خفقانه بمنازل قابوس فى ميدان القتال عند ما يفزعه ما يراه من فعل قابوس فى الجيش الضخم المختلط ، فإن منازله يشتد خفقان قلبه .

وهو مغرم كثيراً بالتشبيه ، ينتقل به من الغزل إلى المدح .

وأكثر ما بقى لنا من مدائحه فى الصّاحب بن عبّاد ، يمدحه حيناً ببلاغة القول ، وجمعه بين المعانى المبتكرة ، والألفاظ المتآلفة ؛ وحيناً برفعة المكانة ، وأنه يقسم على الورى أرزاقهم ، وحيناً يتحدّث عن أفضاله وأياديه التى له فى رقاب الناس ، وآناً يثنى على شجاعته وكرمه ، وآناً يصف عشق الوزير للمجد ، وآناً آخر يثنى على خلقه الرّقيق . ومؤرخو الصاحب يؤكدون له هذه الصّفات التى جعلت عهده كما قال القاضى طلقاً طيّب الظلال . كما واسى القاضى الصاحب فى علته ، وهنأه بالشفاء من مرضه .

وقد أثنى الثعالبى على الشعر الذى أنشأه القاضى فى الصاحب ، وقال عنه : « وسيّر فيه قصائد أخلصت على قصد [١] ، وفرائد [٢] أتت من فرد ، وما منها إلا صوب العقل [٣] ، وذوب [٤] الفضل » .

وقلّ مدحه لغير الصاحب ، فنراه يثنى على قابوس بن وشمكير بالشجاعة والبلاغة ، وعلى بعض ممدوحيه الآخرين بسموّ الخلق ، والكرم ، وحب المجد ، مما لا يخرج عن المدح الموروث .

وإذا كان القاضى فى كتابه الوساطة لا يرضى عن الإفراط فإنه قد وقع فيه فى شعره أحياناً ، كقوله مادحاً :

أعدى الأنام طباعه ، فتكرّموا لو جاز أن يدعى سواه كريما[٥]

وقوله فى قصيدة أخرى مادحاً أيضاً :

ما زال فى الناس أشباه وأمثلة حتّى ظهرت ، فغاب الشكل والمثل[٦]

---

(١) أخلصت : دلت على الإخلاص . وعلى قصد : لم يغال فيها .
(٢) فرائد : جمع فريدة ، وهى التى ليس لها نظير .
(٣) الصوب : الانصباب ، وضد الخطأ .
(٤) الذوب : الخالص .
(٥) يتيمة الدهر ٤ : ١٨ .
(٦) المرجع السابق نفسه .

والوصف الذى بقى لنا فى شعر القاضى الجرجانى يأتى فى أثناء شعر المدح ، إلا حين يصف نفسه ، فإنه حينئذ ينشئ الشعر لذلك قصداً .

وقد وصف القاضى روضة جعلها مقدمة لقصيدة مدح ، وجعل وصف الربيع وسيلة للمدح أيضاً ، كما وصف الخريف ، ووازن بينه و بين الممدوح ، والشاعر معجب بالفصلين جميعاً ، فإذا كانت أمطار الربيع قد كست الأرض وشياً مذهباً ، وابتسمت فيه الأشجار بعد عبوس وتقطيب ، وخلعت فيه الرّياض حدادها الذى كانت ترتديه فى أيام الشتاء . وكأنما سقاها الغيث خمراً فأخذت أشجارها تتمايل سكراً كلما هبّت الصّبا — فإنّ الخريف خلاصة العام وأجمل ما فيه ، رقيق الهواء ، صافى الأفق ، عذب الأوقات ، ويستلذّ الشاعر بأوقات الخريف ، حتى ليخيّل إليه أنه لو استحال خمراً ما كانت حراماً .

واتخذ القاضى الشعر وسيلة يصف بها نفسه ، وما يمر بها من آمال وآلام ، ويبلغ قدراً كبيراً من الإجادة فى هذا اللون من الشعر ، وقد سبق أن أوردنا بعضه ، ومنه ما كان فى الشكوى .

وكان إعجاب بعض مؤرخيه عميقاً ببعض هذا الشعر الذى وصف به نفسه ، وبخاصة هذه القصيدة التى مطلعها : « يقولون لى : فيك انقباض . . » يعلّق عليها السبكى قائلا : « لله درّ هذا الشعر ما أبلغه وأصنعه ، وما أعلى على هام الجوزاء موضعه ! وما أنفعه ، لو سمعه من سمعه ! وهكذا فليكن ، وإلاّ فلا ، أدب كلّ فقيه ، ولمثل هذا الناظم يحسن النظم الذى لا نظير له ولا شبيه ، وعند هذا ينطق المنصف بعظيم الثناء على ذهنه الخالص لا بالتّنويه »[1] .

ويعرّف ابن خلكان به ، فيقول : إنه صاحب قصيدة : « يقولون لى : فيك انقباض . . » ويعلق عليها بأنها أبيات طويلة مشهورة[2] . وكان ابن خلكان

---

(١) طبقات الشافعية ٢ : ٣٠٨ .
(٢) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٤ .

فى القرن السابع الهجرى ، فقد ظلّ للقصيدة شهرتها منذ وفاة صاحبها فى القرن الرابع إلى أيام ابن خلكان .

أمّا الحكمة فربما وجدتها فى ثنايا القصيدة كهذا البيت :

وليس الفتى من كان ينصف حاضراً أخاه، ولكن مَن إذا غاب أنصفا[1]

وحيناً نراه قد وضعها فى آخر القصيدة ، كما فعل زهير بن أبى سلمى فى معلقته . وحكمه ، وإن كانت قليلة ، تتّصل بموضوع القصيدة أوثق اتصال.

أما إخوانيّاته فتتدفّق فيها عواطفه، وربما استعار قلمه بعضُ إخوانه . فنظم القاضى شعراً على لسانه ، كهذا الصديق الذى أرسل إليه بعض إخوانه هدية فيها أفراخ وباقلاّء وباذنجان ، فقال على لسانه يذكر ذلك :

أبى سيّد السادات إلا تظرّفا وإلا وصالا دائماً ، وتعطّفا

ويمضى فى وصف الهديّة ، ويختم القصيدة بقوله :

فيالك من أكلٍ على ذكر من به تطيب لنا الدّنيا ، تعطّف أم جفا

ولم أر قبل اليوم تحفة مُتْحِفٍ أسرّ وأبهى ، بل أجلّ وأشرفا

علمنا به كيف التّظرّف بعده ومَن عاشر الحرّ الظريف تظرّفا

تحسّ وأنت تقرأ شعر القاضى الجرجانىّ بشدّة التلاؤم بين أبيات شعره ، ووثاقة اتصال البيت بجاره .

وشعره يتراوح بين الطول والقصر ، وأطول ما بقى له قصيدة تبلغ خمسة وثلاثين بيتاً .

وهو شعر متوسط الجودة ، سهل الطريقة ، ولذلك جعله الثعالبى من أتباع البحترى[2] ؛ وربما لمحت فيه بعض معانى المتنبى ، كقوله :

تقسّمت العلياء جسمك كله فمن أين للأسقام فيه نصيب

فإنه يذكّرنا بقول أبى الطيب يخاطب الحُمّى :

---

(١) يتيمة الدهر ٤ : ٢٤ .

(٢) يتيمة الدهر ٤ : ٣ .

أبنتَ الدّهر ، عندى كلّ بنت فكيف وصلت أنت من الزحام

ومما يلحظ فى شعره الباقى أنّ معظمه من بحر الطويل أو البحور الطويلة ، مما يدل على أن منشئه هادئ فى انفعاله ، وإن كنت ترى له وبخاصة فى الغزل ، الأبيات القصيرة الدّالة على الانفعال السريع العنيف .

٧ – تأثّره وتأثيره

كان من الطبيعى لرجل كالقاضى الجرجانىّ يريد أن يكون من رجال الأدب ، وأن يؤلّف فى النقد الأدبى – أن يتصل بالكتب التى ألفت قبله فى هذا الموضوع ، وأن يستفيد من التجارب التى وصل إليها من سبقه من الباحثين ؛ وكان من الطبيعى كذلك أن يظهر أثر دراسته فى كتابه : الوساطة بين الشعراء .

فقد رأينا تأثّره بابن سلاّم الجمحىّ[1] فى إيمانه بأثر البيئة فى الشعر . بل إنه يأتى بالمثل نفسه الذى أورده ابن سلام ، وهو عدى بن زيد . فيرى صاحب الوساطة شعره ، وهو جاهلى ، أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة ؛ لملازمة عدى الحاضرة ، وإيطانه الرّيف ، وبعده عن جلافة البدو . وجفاء الأعراب[2] . وقبل القاضى ضربه ابن سلام مثلا لسهولة الشعر معللا ذلك بأنه كان يسكن مراكز الرّيف ، ويعيش فى الحيرة فى حيّز النعمان بن المنذر ؛ فثقل على لسانه عبارات نجد ، ولان لسانه ، وسهل منطقه[3] .

وتأثر به أيضاً فى إيمانه بأن الشعر صناعة يعرفها أهل العلم كسائر الصناعات ، يقول ابن سلام : « وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم ، كسائر أصناف العلم »[4] ، ويقول القاضى : « ولكل صناعة أهل يرجع

---

(١) توفى سنة ٢٣١ هـ .
(٢) الوساطة ص ١٧ .
(٣) طبقات فحول الشعراء ص ١١٧ .
(٤) المرجع السابق ص ٦ .

إليهم فى خصائصها ، ويستظهر بمعرفتهم عند اشتباه أحوالها »[١] .

ورأى كما رأى ابن سلام من قبل أن ذوق العلماء بالشعر هو الفيصل فى الحكم ، وإن كان غير مستطيع أن يبين السبب الذى دعا إلى هذا الحكم ، يقول ابن سلام : « يقال للرّجل والمرأة فى القراءة والغناء : إنه لندىّ الصوت[٢] والحلق ، طلّ الصوت[٣] ، طويل النفس ، مصيب اللحن ، ويوصف الآخر بهذه الصّفة ، وبينهما بون بعيد . يعرف ذلك العلماء عند المعاينة ، والاستماع له ، بلا صفة ينتهى إليها ، ولا علم يوقف عليه ، وإنّ كثرة المدارسة لتُعدى على العلم به ، فكذلك الشعر يعرفه أهل العلم به »[٤] .

وقد سبق أن بيّنا رأى القاضى فى إدراك الجمال ، وأن مآله إلى باطن تحصّله الضمائر .

وإذا كان القاضى الجرجانى يسوّى بين القديم والمحدث ، ولا ينظر إلى القديم بعين الإكبار لتقدّمه فى الزمن ، ولا إلى المحدث بعين الزّراية لتأخره فى الوجود ، بل يفاضل بينهم بمقدار ما منحوه من طبع ، وذكاء ، ورواية ، ودربة ، لا يفصل فى هذه القضية بين القديم والمحدث ، والجاهلىّ والمخضرم[٥] ، والأعرابىّ والمولّد[٦] . ولا يرى من العدل استنقاص المتأخرين واللهج بعيبهم[٧] — فمن قبله أعلن ابن قتيبة[٨] هذا الرّأى نفسه إذ قال : « ولم أقصد فيما ذكرته من شعر كلّ شاعر مختاراً له سبيل من قلّد ، أو استحسن باستحسان غيره ،

---

(١) الوساطة ص ٩٧ .
(٢) ندى الصوت : بعيده ممدوده .
(٣) طل الصوت : حسنه ، عذبه ، ناعمه ، بهيج النغمة .
(٤) طبقات فحول الشعراء ص ٧ . وتعدى : تعين .
(٥) المخضرم : الشاعر الذى أدرك الجاهلية والإسلام .
(٦) الوساطة ص ١٤ — ١٥ .
(٧) الوساطة ص ٤٩ .
(٨) توفى سنة ٢٧٦ هـ .

ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة ؛ لتقدمه ، ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار ؛ لتأخره ، بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين ، وأعطيت كلاً حقه ، ووفرت عليه حظه ، فإنى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف ؛ لتقدم قائله ، ويضعه موضع متحيّزه ، ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب له عنده إلا أنه قيل فى زمانه ، ورأى قائله ، ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده ، وجعل كلّ قديم منهم حديثاً فى عصره . . . فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له ، وأثنينا عليه به ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله ، ولا حداثة سنّه ، كما أنّ الردىء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ، ولا تقدمه »[1] .

وقد وفّى ابن قتيبة الموضوع حقه أكثر مما وفاه القاضى الجرجانى .

وقد قرأ القاضى كتاب الموازنة بين الطائيين للآمدى[2] ؛ وهناك أشياء قد اتفق فيها الناقدان :

فمن ذلك تمجيد الناقدين للشعر المطبوع ، وإن اختلفت نظرتهما إلى المطبوع من الشعر ، فالآمدى يراه : «المستوى قليل السقط الذى لا يبين جيده من سائره ببينونة شديدة »[3] ، بمعنى ألا يرتفع ارتفاعاً شديداً فى بعض أجزاء القصيدة ، وينحدر انحداراً معيباً فى بعضها الآخر . وقد سبق أن بيّنا رأى القاضى فى الشعر المطبوع[4] .

ونجد الناقدين يعترفان بتفاوت شعر أبى تمام[5] ، وبأن فى شعره استعارات قبيحة[6] .

---

(١) الشعر والشعراء ص ٢ .
(٢) توفى سنة ٣٧٠ هـ .
(٣) الموازنة ص ٢٢ .
(٤) راجع ص ٥٣ .
(٥) الموازنة ص ٢٢ ، والوساطة ص ٢١ .
(٦) الموازنة ص ١١٢ ، والوساطة ص ٣٩ .

ووجدنا الآمدى يتحدث عن السرقة ، فلا يجد سرقة فيما يشترك الناس فيه ، وتجرى طباع الشعراء عليه ؛ وإنما السرق يكون فى البديع الذى ليس للناس فيه اشتراك [١] . وهذا هو الرأى الذى وضحه القاضى الجرجانى [٢] .

ويتسامح الآمدى فى السرقة ، ولا يعدّها من كبير المساوئ إذ يقول : « إن من أدركت من أهل العلم بالشعر لم يكونوا يرون سرقات المعانى من كبير مساوئ الشعراء ، وخاصة المتأخرين ؛ إذ كان هذا باباً ما تعرّى منه متقدّم ولا متأخر [٣] . وذلك هو رأى القاضى الجرجانى [٤] ، كما سبق أن ذكرنا .

ويتفقان أيضاً فى أن الذى يحكم على الشعر إنما هم أهل الخبرة والدّربة ، وأنهم قد يدركون ألوان الجمال بأذواقهم ، ولا يستطيعون الإفصاح عن أسباب حكمهم ، يقول الآمدى : « ألا ترى أنه قد يكون فرسان سليمين من كل عيب ، موجود فيهما سائر علامات العتق والجودة والنجابة ، ويكون أحدهما أفضل من الآخر بفرق لا يعلمه إلا أهل الخبرة والدّربة الطويلة . . . وإذا قيل له : من أين فضلت هذا الفرس على صاحبه لم يقدر على عبارة توضح الفرق بينهما ، وإنما يعرفه بطبعه ، وكثرة دربته ، وطول ملابسته ، فكذلك الشعر : قد يتقارب البيتان الجيدان النادران ؛ فيعلم أهل العلم بصناعة الشعر أيهما أجود إن كان معناهما واحداً ، أو أيهما أجود فى معناه ، إن كان معناهما مختلفاً . . . وحكى إسحق الموصلى قال : قال لى المعتصم : أخبرنى عن معرفة النغم ، وبيّنها لى ؛ فقلت : إنّ من الأشياء أشياء تحيط بها المعرفة ، ولا تؤديها الصّفة . . . وإنه ليس فى وسع كلّ أحد أن يجعلك أيها السائل فى العلم بصناعته كنفسه . . . ولا أن يأتيك بعلة قاطعة ، ولا حجة باهرة »[٥] .

---

(١) الموازنة ص ٢٣ .
(٢) الوساطة ص ١٨٠ .
(٣) الموازنة ص ١٣١ .
(٤) الوساطة ص ٢٠٧ – ٢٠٨ .
(٥) الموازنة ص ١٧٧ – ١٧٨ .

وفكرته كفكرة القاضى الجرجانى ، ولكن القاضى ضرب المثل بصورتين مكان الفرسين[١] .

* * *

وكان أثر القاضى كبيراً فيمن جاء بعده ، سواء فى الدّراسات النقدية ، أو فى الدّراسات الّتى دارت حول المتنبى :

فرأينا أثره واضحاً فى عبد القاهر الجرجانىّ عندما تحدث هذا عن السرقة الأدبية ، فرأى أنّ المعنى إن كان مما اشترك الناس فى معرفته ، وكان مستقرّاً فى العقول والعادات لا يكون الاشتراك فيه داخلا فى الأخذ والسرقة[٢] . وذلك ما سبق به القاضى الجرجانى[٣] .

وبرغم أن القاضى الجرجانى كان يدين بتفضيل أبى تمام وتقديمه ، ويراه قبلة أصحاب المعانى ، وقدوة أهل البديع[٤] — يراه متكلفاً ، متوعّر اللفظ ، متغلغلا فى التصعب ، طالباً للبديع من كلّ وجه ، يجتلب المعانى الغامضة[٥] .

وقد تأثر بهذا الرّأى عبد القاهر الجرجانى ، فكان يجد فى شعره أمثلة للتعقيد[٦] ، وللاستعارة والجناس الرديئين[٧] ، ويقع فى ضرب من النّهوس[٨] ، ويجده فاسد الذوق[٩] ، ويفضّل الرجلان البحترى على أبى تمام ، ولذلك قدّم عبد القاهر مختاراته للبحترى على مختاراته لأبى تمام[١٠] .

ومع ذلك يقف الناقدان معجبين بالشعر الرائع لأبى تمام[١١] .

---

(١) الوساطة ص ٤٢٦ — ٤٢٧ .
(٢) أسرار البلاغة ص ٢٩٤ .
(٣) راجع ص ٦٠ .
(٤) الوساطة ص ١٨ .
(٥) المرجع السابق نفسه . وراجع آراءه فى أبى تمام فى الوساطة ص ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٧٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٣ .
(٦) دلائل الإعجاز ص ٦٦ ، وأسرار البلاغة ص ١٢١ .
(٧) دلائل الإعجاز ص ٤٠٢ ، وأسرار البلاغة ص ٤ .
(٨) أسرار البلاغة ص ٥٩ . (٩) أسرار البلاغة ص ٢٢٠ .
(١٠) عبد القاهر الجرجانى ص ٣٥ .
(١١) راجع الوساطة ص ٢٠ ، ٦٣ ، ودلائل الإعجاز ص ٨٢ ، ١٧٤ ، ٢٤١ ، وأسرار البلاغة ص ١٠٠ ، ٣١١ .

وارتضى عبد القاهر الجرجانىّ ما عرّف به القاضى الاستعارة ، ومتى تكون قوّية رائعة ، فنقل فى كتابه : دلائل الإعجاز[١] تعريف القاضى للاستعارة ، وأنها ما اكتفى فيه بالاسم المستعار عن الأصلى ، ونقلت العبارة ، فجعلت فى مكان غيرها [٢] . وإن فسّر عبد القاهر النقل تفسيراً يبين عن نفس حسّاسة .

ونقل فى كتابه : أسرار البلاغة[٣] عن القاضى أساس الاستعارة القوية ، إذ جعل ملاكها تقريب الشبه ، ومناسبة المستعار له للمستعار منه[٤] .

كما قبل عبد القاهر أيضاً رأى القاضى فى الفرق بين التشبيه والاستعارة ، فإذا ذكر المشبه والمشبه به كان ذلك تشبيهاً ، أما إذا اقتصر على أحدهما فذلك هو الاستعارة[٥] .

ورأى عبد القاهر نقد القاضى الجرجانى لبيت ابن المعتز :

بياض فى جوانبه احمرار كما احمرّت من الخجل الخدود

حين قال القاضى : « ولو اتّفق له أن يقول : حمرة فى جوانبها بياض ، لكان قد طبّق المفصل ، وأصاب الغرض ، ووافق شبه الخجل ، لكن أراد أن البياض والحمرة يجتمعان ، فجعل الاحمرار فى جوانب البياض » [٦] — فنقله عبد القاهر فى كتابه أسرار البلاغة[٧] .

إلا أنّ عبد القاهر كان أدق من أستاذه ، لأنّ القاضى رأى أن ابن المعتزّ « راغ عن موقع التشبيه »[٨] ؛ وأما عبد القاهر فيرى أنّ الشاعر « لعله وجد الأمر كذلك فى الوردة ؛ فشبه على طريق العكس ؛ فقال هذا البياض حوله الحمرة ، كالحمرة حولها البياض هناك . . . والقصد إلى جنس من الورد مخصوص ، وهو ما فيه بياض يحدق به حمرة »[٩] .

---

(١) ص ٣٣٣ . (٢) الوساطة ص ٤٠ . (٣) ص ٣٤٦ . (٤) الوساطة ص ٤٠ .
(٥) أسرار البلاغة ص ٢٧٩ ، والوساطة ص ٤٠ . (٦) الوساطة ص ١٨٢ .
(٧) ص ١٧٢ . (٨) الوساطة ص ١٨٣ . (٩) أسرار البلاغة ص ١٧٢ — ١٧٣ .

فأنت ترى عبد القاهر يريد أن ينظر إلى المشبه من حيث هو فى الواقع ، ويصحح التشبيه على هذا الوضع ، وكأن القاضى يريد أن يطابق بين المشبه والمشبه به ، وإن لم يكونا متطابقين فى واقع الطبيعة .

وأطال القاضى الجرجانى فى الحديث عن تعقيد الشعر [١] ، وربما يكون قد أدرك أنّ المعنى الذى يفهم من البيت لا يفى بالتعب الذى يبذل فى سبيل الوصول إليه [٢] .

كما أطال عبد القاهر فى الحديث عن التعقيد أيضاً ، ولكنه وازن بين الكلام البليغ المتوقّف على دقّة الفكر ، وهو ممدوح لدى النقاد ، وهذا المعقد المذموم ، وانتهى إلى أنّ المعقد من الشعر والكلام لم يذم ؛ لأنه مما تقع حاجة فيه إلى الفكر على الجملة . بل لأنّ صاحبه يجعل فكرك يتعثر فى مضمونه ، ويجعل طريقك إلى المعنى شائكاً ، ومذهبك نحوه وعراً ، بل ربما قسم فكرك ، وشعّب ظنك ، حتى لا تدرى من أين تتوصل ؟ وكيف تطلب ؟ [٢]

وإذا كان القاضى قد تحدّث عن تفنن الشعراء فى السرقة فإنّ ذلك فتح الباب أمام عبد القاهر للموازنة بين الشعراء حين يقولون فى معنى واحد [٣] ، وفى هذا الفصل ينقل رأى القاضى من أنّ قول أبى نواس :

خليت واحسنَ تأخذه ... تنتقى منه ، وتنتخب
فاكتست منه طرائفه ... واستزادت فضل ما تهب

وبيت عبد الله بن مصعب :

كأنك جئت محتكماً عليهم ... تخيّر فى الأبوّة ما تشاء

أحدهما هو الآخر فى المعنى ، وإن كان أحدهما يتخير الحسن ، والآخر الأبوّة . وأنهما من قول بشار :

خلقت على ما فىّ غير مخيّر ... هواى ، ولو خيّرت كنت المهذبا

---

(١) الوساطة ص ٩٦ .
(٢) أسرار البلاغة ص ١٢٥ .
(٣) دلائل الإعجاز ص ٣٧٤ .

ثمّ تسوّنه أبو تمام ، فأخفاه ، فقال :

ولو صوّرت نفسك لم تزدها على ما فيك من كرم الطباع[١]

وكان لرأيه فى إنتاج الشعر أثره فى النقاد من بعده .

أما ابن رشيق [٢] فقد رأى ما رآه القاضى الجرجانىّ من أنّ الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرّواية والذّكاء ، ثمّ تكون الدّربة مادّة له . وقوّة لكلّ واحد من أسبابه[٣] ، وينقل ذلك عنه فى كتابه العمدة[٤] .

كما يقرر ابن الأثير[٥] أن صناعة تأليف الكلام من المنظوم والمنثور تفتقر إلى آلات كثيرة . . . وملاك هذا كله الطبع ، فإنه إذا لم يكن ثمّ طبع فإنه لا تغنى تلك الآلات شيئاً ، ومثال ذلك كمثل النار الكامنة فى الزّناد ، والحديدة التى يقدح بها ؛ ألا ترى أنه إذا لم يكن فى الزّناد نار لا تفيد تلك الحديدة شيئاً »[٦] .

ويشيد ابن خلدون[٧] بأثر الدّربة فى الإنتاج الأدبىّ إذ يقول : « ثمّ بعد الامتلاء من الحفظ وشحذ القريحة للنسج على المنوال ، يقبل على النظم ، وبالإكثار منه تستحكم ملكته ، وترسخ »[٨] .

* * *

أما أثره فى الدّراسات التى دارت حول المتنبى فتبدو فى أولئك الذين خصوا المتنبى بالدّراسة ، فمنهم من أخذ عنه ، ومنهم من رأى فى الشاعر رأيه الذى بنى الوساطة عليه .

فمن هؤلاء الثعالبى[٩] صاحب يتيمة الدهر ، فقد عقد فى هذا الكتاب فصلا درس فيه أبا الطيب وديوانه[١٠] .

---

(١) الوساطة ص ١٩٩ ، ودلائل الإعجاز ص ٢٩٠ . (٢) توفى سنة ٤٦٣ هـ .
(٣) الوساطة ص ١٤ . (٤) ج ١ ص ٧٨ . (٥) توفى سنة ٦٢٧ هـ .
(٦) المثل السائر ص ٣ . (٧) توفى سنة ٨٠٨ هـ .
(٨) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٦ . (٩) أبو منصور عبد الملك بن محمد توفى سنة ٤٢٩ هـ .
(١٠) يتيمة الدهر ج ١ من ص ٩٠ — ١٩٠ .

إن هذه الدراسة صدى للمذهب المعتدل الذى كان القاضى الجرجانىّ من زعماء ممثليه ؛ فإن الثعالبى يوازن بين مزايا الديوان ونقائصه ، كما فعل القاضى من قبل .

يقول الثعالبى : « وأنا مورد فى هذا الباب ذكر محاسنه ومقابحه ، وما يرتضى وما يستهجن من مذاهبه فى الشعر وطرائقه . . . ، والتنبيه إلى عيونه وعيوبه »[١] ؛ وهو بذلك ينهج نهج القاضى الجرجانى الذى يرى للمتنبى محاسنه وعيوبه .

وينقل عن صاحب الوساطة رأيه فى أنّ أبا الطيب عندما قال :

أقل ، أنل ، أقطع ، احمل ، علّ ، سلّ ، أعد
زد ، هشّ ، بشّ ، تفضّل ، أدن ، سَرّ ، صِـــل

قد نسج على منوال ديك الجنّ ، عندما قال :

اُحلُ ، وامرُر ، وضرّ ، وانفع ، ولن ، واخشن ، ورشْ ، وبرّ ، وانتدب للمعالى[٢]

فلما جاء إلى سرقات المتنبى رأى أن يورد منها ما لم يورده القاضى فى كتابه ، وقد رأى الثعالبى أن القاضى فى هذا الباب « شفى وكفى ، وبالغ فأوفى »[٣] .

أما الأبواب الأخرى التى عقدها لبيان معايب شعر المتنبى فإنه أحياناً ينقل عن القاضى رأيه فى هذا المعيب[٤] ، ويذكر اسمه صراحة ، وأحياناً ينقل ، ولا يذكر الاسم .

وتأثر به من دارسى المتنبى كذلك أبو سعيد محمد بن أحمد العميدى[٥] ،

---

(١) يتيمة الدهر ١ : ٩١ .
(٢) المرجع السابق ص ٩٧ .
(٣) المرجع السابق ص ١١٠ .
(٤) المرجع السابق ص ١٢٨ ، ١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٤٦ .
(٥) توفى سنة ٤٣٣ هـ .

فبرغم أنّ اتجاهه يخالف اتجاه القاضى تمام المخالفة ؛ لأنه هاجم المتنبى هجوماً عنيفاً ، ولم يرد إلا بيان ما فى شعر أبى الطيب من السرق ، إذ يقول : « ولقد تأملت أشعاره كلها ؛ فوجدت الأبيات التى يفتخر بها أصحابه ، وتعتبر بها آدابه ، من أشعار المتقدمين منسوخة ، ومعانيها من معانيهم مسلوخة »[١] ، برغم ذلك نجد تأثره به واضحاً فى أنه لم يجعل الدّين من مقاييس نقده للمتنبى ، فهو يعلن إنكاره لذلك فى صراحة ، ويقول : « وكيف يسوغ لى أن أثلبه لإلحاده . . . ، وأنا أتحقق أن أكثر من يستشهد بأشعارهم المشركون والكفار والمنافقون والفجار »[٢] ؛ وقد سبق أن أعلن القاضى أنّ الدّين بمعزل عن الشعر[٣] .

ومما هو جدير بالذكر هنا أنّ الثعالبى ، وإن كان يرى « أنّ الدّيانة ليست عياراً على الشعراء ، ولا سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر »[٤] يرى أنّ « للإسلام حقه من الإجلال الذى لا يسوغ الإخلال به قولا وفعلا ، ونظماً ونثراً »[٥] .

ولكننى رأيت العميدى ينقل خطأ عن القاضى الجرجانى : « أنّ البحترىّ أحرق خمسمائة ديوان للشعراء فى أيامه حسداً لهم ؛ لئلا تشتهر أشعارهم ، ولا تنشر فى الناس محاسنهم وأخبارهم »[٦] ؛ فإنّ القاضى لم يرو الخبر على هذا الوجه ، بل قال : « إن البحترى أسقط خمسمائة شاعر فى عصره »[٧] ؛ ولست أدرى كيف وقع العميدى فى هذا الخطأ ؛ فهناك فرق شاسع بين الرّوايتين .

---

(١) الإبانة عن سرقات المتنبى ص ٢٢ .
(٢) الإبانة عن سرقات المتنبى ص ٢٤ .
(٣) الوساطة ص ٦٢ .
(٤) يتيمة الدهر ١ : ١٤٢ .
(٥) المرجع السابق نفسه .
(٦) الإبانة عن سرقات المتنبى ص ٢٣ .
(٧) الوساطة ص ١٥٧ .

ويخالف العميدى القاضى الجرجانى فى نظرته إلى ابن الرومىّ ، فبينما لا يراه القاضى الجرجانى شيئاً إذا قيس بالمتنبى [١] ، يفضله العميدىّ على أبى الطيب ، ويقول : « ولا أقيسه فى امتداد النفس ، وعلم اللغة ، والاقتدار على ضروب الكلام ، وتصوّر المعانى العجيبة ، والتشبيهات الغريبة ، والحكم البارعة ، والآداب الواسعة ، بابن الرومى »[٢] .

أما يوسف البديعى[٣] فى كتابه : « الصبح المنبى ، عن حيثية المتنبى » فيختار طريقة صاحب الوساطة منهجاً له ، فيذكر معايب شعره ومقابحه[٤] ، ثم يورد « نبذة من محاسنه وروائعه ، وغرائبه ، وقلائده وفرائده التى زاد فيها على من تقدّم ، وسبق بها جميع من تأخر »[٥] .

وقد انتفع البديعىّ بكلّ ما قرأه من كتب السابقين عن المتنبى ، كيتمية الدهر للثعالبى ، والمثل السائر لابن الأثير ، والكشف عن سرقات المتنبى للعميدى ، والكشف عن مساوئ المتنبى لابن عباد ، والمنصف لابن وكيع ، وإلى جانب ذلك انتفع بجهود صاحب الوساطة فى دراسة للمتنبى .

* * *

٨ ــ منزلته

للقاضى الجرجانى مكانة عالية فى النقد الأدبىّ ، وإنه يستمدّ هذه المكانة من أمور كثيرة ، منها :

دعوته الحارّة إلى العدالة فى النقد ، وعدم اتباع الهوى ، وهو بذلك يدعو إلى نقد مؤسس على الشعور الصادق ، لا على التقليد والتحامل .

---

(١) الوساطة ص ٨٢ .
(٢) الإبانة عن سرقات المتنبى ص ٢٤ .
(٣) توفى سنة ١٠٧٣ هـ .
(٤) الصبح المنبى ص ١٨٠ .
(٥) الصبح المنبى ص ٢٣٧ .

ومن العدالة فى النقد النظر إلى موضوع النقد من زواياه المختلفة ، حتى ينال ما يستحقه من الذمّ أو الثناء ؛ إذ من الظلم الحكم على الشيء بجانب منه ، دون إشراك باقى الجوانب . وبهذه النظرة الشاملة تكون النتيجة أقرب ما تكون إلى الصّواب .

ومن العدالة فى النقد أيضاً الاحتراس فى إصدار الأحكام ، حتى لا تلقى جزافاً ، فلا بدّ من الاستقراء الشامل ، ليكون الاستنتاج صحيحاً ، فإذا لم يتأتّ هذا الاستقراء فحذار من إلقاء الأحكام العامة ؛ لأنها حينئذ تكون خاطئة .

والقاضى الجرجانى يستمد هذه المبادئ من عمله قاضياً ينبغى له أن يتثبت من أسباب الحكم قبل إصداره .

وعندما أشاد القاضى بالطبع المهذّب الذى صقله الأدب ، وشحذته الرواية ، دعا النقاد إلى أن يأخذوا بنصيب كبير من الثقافة الأدبية ، متى كان الطبع لديهم ، حتى تتهيأ لهم الأداة الصّالحة للحكم الصّواب . والواقع أنه من غير هذا الطبع المهذّب لا يمكن الحكم على النصوص الأدبية حكماً له قيمة نقدية .

ووضّح القاضى الأسس التى بها يتفاوت الشعراء فى الجودة ، ويوضع بعضهم فى طبقة أعلى من بعض . يوم ذكر أنّ الشعر علم يشترك فيه الطبع ، والذكاء ، والرّواية ، والدّربة ؛ ولا يكاد الزّمن يضمّ إلى هذه الأسس جديداً إلا أن يضع مكان الرّواية الثقافة التى يُطالب بها الأدباء فى العصر الحديث ، ورواية النصوص الأدبية ودراستها بعض من هذه الثقافة .

وكان القاضى صريحاً عندما أعلن أنّ شعراء الجاهلية يخطئون ، وأنّ النحاة يركبون الصّعب لتأويل هذا الخطأ ، من غير أن يكون ثمة باعث سوى شدّة إعظام المتقدم . وفى تلك النظرة المتحرّرة ، ما يجعل الناقد يصدر حكمه

كما يهدى إليه عقله وذوقه المصقول ، لا يحول بينه وبين أن يقول ما يعتقده إيمان بقداسة الأقدمين .

كما أنه من النقاد الذين رأوا جمال الشعر فى أن يكون مطبوعاً لا تكلف فيه ، ولا اجتلاب لمحسّن أو زينة ، وهو رأى تؤمن به الأذواق الصافية . ويأخذ به عصرنا الحديث .

ولا يمنع القاضى أن تصاغ الآراء الفلسفية شعراً ، بل يرى المتنبى يتأتّى له المعنى البكر إذا خرج عن رسم الشعر إلى طريق الفلسفة ، كما فى قوله :

إلف هذا الهواء أوقع فى الأنـ ـفس أنّ الحمام مرُّ المذاق

والأسى قبل فرقة الرّوح عجز والأسى لا يكون بعد الفراق[1]

وكأنه بذلك يسمح لجميع التجارب الإنسانية ، أن تصاغ فى لغة الشعر .

وإذا كان قد عاب على أبى تمام أنه خاطب غلاماً غرًّا بلغة فلسفية[2] ، فموضع العيب إنما هو فى استخدام الأفكار الفلسفية فى غير مكانها .

وقرّر القاضى الجرجانى فى صراحة الصّلة بين الأدب وخلقة الأديب فضلا عن الصّلة بين أدبه وطبعه وذكائه .

وهو ناقد موضعىّ ، يحدّد موضوع النزاع ، ليناقشه ويخرج منه بنتيجة مقبولة .

فإذا أضفنا إلى ذلك كله الجهود التى بذلها فى بيان ما للمتنبى من حسنات وسيئات ، وما ضربه من الأمثلة لجيد شعره ورديئه ، وما قام به من دراسات لشعراء ساقه إليها دراسته للمتنبى أدركنا قيمة الرجل بين نقاد العرب .

وإذا أضفنا أيضاً عمق نظرته ، ومقدرته على التحليل . والتعليل وتبيين ما فى الشعر من مظاهر الانحراف ، وتوضيح ذلك وتصويره ، فهمنا قيمته فى النقد الأدبى .

---

(١) الوساطة ص ١٧٧ .

(٢) راجع رأيه فى شعر أبى تمام فى فصل « منتخبات من آثاره » .

ولكننا نأخذ عليه أنه لم يحدّد فى وضوح مكان أبى الطيب بين الشعراء ، وعندما « قسم شعره فجعله فى الصدر الأوّل تابعاً لأبى تمام ، وفيما بعده واسطة بينه وبين مسلم » [١] وعندما جعلك « لا تدعى لأبى الطيب طريقة بشار وأبى نواس . . . ولو ادعيته فإنما كنت تخادع نفسك ، أو تباهت عقلك ، وإنما أنت أحد رجلين : إما أن تدّعى له الصّنعة المحضة ، فتلحقه بأبى تمام ، وتجعله من حزبه ، أو تدّعى له فيه شركاً ، وفى الطبع حظًّا ، فإن ملت به نحو الصنعة فضل ميل صيّرته فى جنبة مسلم ، وإن وفرت قسطه من الطبع عدلت به قليلا نحو البحترى »[٢]. — عندما قال ذلك لم يزدنا علماً بمكان أبى الطيب ، ولكنه شكّكنا فى موضعه الحقيقى ، أين يكون .

---

(١) الوساطة ص ٤٩ .
(٢) الوساطة ص ٤٨ .